
نوال السعداوي
الأغنية الدائرية
دار الآداب
Bibliotheca Alexandrina
0112684

الأغنية الدائرية

تصميم الغلاف

مهى نصرالله

د. نوال السعداوي

الأغنية الدائرية

رواية

دار الآداب

الطبعة الثالثة

١٩٩٩

الاهداء

الى طفلي المجهول : الذي ولدته وحدي منذ قرون ، وتركته بالليل في حضن الجسر، وفي الصباح وجــــدت مكانه شجرة خضراء باسقة ، جذرهـــا في الارض ، ورأسها في السماء ، شامخـــة كالالهـــة الانثى القديمة ، ربة الحياة والمـــوت •

اليه والى كـــل الشجرات الباسقات في العالم ، والى كل أطفـــال الآلهـــة اهدي هذه القصة •

نـــوال السعـــداوي

كانت دائرة من اجساد الاطفال الصغيرة تلف وتدور حول نفسهـا امام عيني ، كل يوم ، وفي اي وقت انـزل فيه من بيتي ، وصورة غنائهم الحـاد الرفيع يدور مـع حركة اجسادهم في اغنيـة واحدة ، لهـا مقطـع واحد ، يتكرر فـي دورة متصلـة لا تنقطـع :

حميدة ولـدت ولـد
سمّته عبدالصمـد
سابتـه ع الانايا (١)
خطفت راسه الحدايا (٢)
حـد يا حـد ...
يا بـوز القـرد !
حميدة ولدت ولـد

---

(١) الانايـا : القناة

(٢) الحدايا : الحداة

سمّته عبدالصمـــد
سابته ع الانايـــا
خطفت راسه الحدايا
حـــد يا حـــد ...
بابـــوز القـــرد
حميده ولـــدت ولد
سمّته عبدالصمـــد

* * *

ويكررون الاغنية . ما ان يصلوا الى الجملة الاخيرة حتى تأتي الجملة الاولى ، وما أن تنتهي الجملة الاولـــى حتى تأتي الاخيرة . ولانهم يدورون ويغنون بغير انقطاع ، فلا يمكن للاذن ان تعرف بداية الاغنية من نهايتها،ولا يمكن للعين ان تعرف بداية حركتهم من نهايتها . فهم كعـــــادة الاطفال يمسكون بأيديهـــم بعضهم البعض علـــى شكـــل دائـــرة مغلقـــة .

ولكن لا بد لي ان أبدأ القصة ، فكل شيء له بدايـــة ، لكـــن نقطـــة البدايـــة في هـــذه القصة لا استطيـــــع تحديدها . فالبدايـــة لا تبدأ بنقطة محددة ، لان البدايـــة في حقيقة الامر غير موجودة او ان البداية والنهاية يتصلان

في خيط واحد دائري من الصعب تحديد اوله من آخره .

ومن هنا صعوبة البدء بشيء ، وعلى الاخص اذا كان قصة حقيقية . اي قصة صادقة كل الصدق ، دقيقة غاية الدقة . والدقة الدقيقة تقتضي من الكاتب او الكاتبة ان يراعي والا يهمل اي نقطة . ان نقطة واحدة قد تقلب كيان معنى من المعاني ، وبالذات في اللغة العربية . الذكر يصبح انثى بسبب نقطة او شرطة ، والبعل بغلا ، والوعد وغدا وهكذا .

ومن هنا لا بد ان توجد نقطة محددة ابدأ بها . والنقطة المحددة هي النقطة المحددة ، لا يمكن ان تكون شرطة او دائرة ، وانما لا بد ان تكون نقطة حقيقية، اي نقطة هندسية . وبمعنى آخر لا بد من دقة علمية في العمل الفني الجيد الذي هو هذه القصة . لكن العلم يفسد الفن ، وهذا الافساد هو بالضبط ما اريده في هذه القصة لتصبح جيدة ، أو لتصبح حقيقية وصادقة صدق الحياة الحية . وانني لأصر على هذا التعبير « الحياة الحية » اكتبه بسبق اصرار وليس من قبيل الصدفة . لان هناك حياتين : حياة حية وحياة ميتة . والحياة الميتة

كالانسان الذي يمشي على الارض دون ان يعرق ، او دون ان يبول ، او دون ان ينبعث من جسده شيء فاسد . الفساد والافساد والتفسد كلها اشياء ضرورية للحياة الحية ، وللانسان الحي . لا يمكن للانسان الحي ان يحبس بوله في مثانته الى الابد ، والا مات . حينئذ يستطيع ان يحبس فساده في الداخل ويصبح من الخارج جسدا ميتا نظيفا من الناحية العلمية . اما من الناحية الفنية فان الفساد المحتبس بالداخل اشد تفسدا من الفساد المنطلق الى الخارج . وهذه حقيقة او ظاهرة طبيعية لا تخفى على أحد ، فان رائحة الجسد الميت اشد سوءا من رائحة الجسد الحي .

خيّل اليّ (والخيال في تلك اللحظة كان حقيقة) ان طفلا من الاطفال المنشدين المتماسكين بالايدي على شكل دائرة تدور خرج فجأة من الدائرة . رأيت جسمه الصغير ينفصل عن الخط الدائري المنتظم في دورانه كنقطة لامعة محددة . كنجم فقد توازنه الابدي فانفصل عن الكون اللانهائي ، واندفع بحركة عشوائية سريعة متوهجا بشعلة كالشهب قبل ان يحترق .

وباستطلاع غريزي تابعت عيني حركته . وحين توقف

كان قد اصبح بالقرب مني • ورأيت وجهه • لـم يكـن طفـلا ذكرا • كان انثى • لم اعرف عن يقين انهـا انثى ، فوجوه الاطفال كوجوه العجائز لا جنس لهـا • وبيـن الطفولـة والشيخوخة مرحلـة يضطر فيها الانسان الـى الاعلان عن جنسه بوضوح اكثر •

الوجه (للغرابة الشديدة) لم يكن غريبا عليّ • كان مألوفـا بدرجة اثارت دهشتي الى حدّ عـدم التصديق • فليس من المعقول ان يخرج الانسان من بيته فـي الصباح ذاهبا الى عمله ،فاذا به يصطدم بشخص آخـر ، مـا ان يرفع وجهـه اليه حتـى يرى وجهه هو ، وليس ايّ وجه آخـر •

اعترف انجسدي ارتجّ ، نوع شديد مـن الذعـر يشلّ قدرة الانسان عـلى التفكير • ومع ذلك فكرت : يذعر الانسان حينما يرى وجهه وجها لوجـه ؟ لعلّهـا الغرابة الشديدة ، او لعلها الالفة الشديدة• حينئذ يختلط على الانسان كل شيء ، وتصبح الاشياء المتناقضة متشابهة الى حد التماثل ، فالاسود يصبح ابيض ، والابيض اسود• ومعنى ذلك انيواجه الانسان بعينيه المفتوحتين حقيقـة انه أعمى •

فركت عيني بأصابع مرتجفة • ونظرت في وجهه مرة ثانية ، وثالثة ، ورابعة وخامسة وربما لا زلت انظر في وجهه حتى هذه اللحظة ، وفي كل لحظة ، كأنه يلازمني كظلّي ، او يلتصق بي كقطعة من جسدي ، كذراعي او ساقي •

والذعر بطبيعته يولد الكراهية • لا أنكر انني كرهت هذا الوجه • وقد يظنّ بعض الناس انني لست صادقة فيما أقول ، ويتساءلون كيف يمكن لانسان ما أن يكره وجهه ، او جسده ، او قطعة من هذا الجسد • وهؤلاء الناس هم ولا شك على حق • انهم اقدر مني على رؤيتي • ليست هي محنتي وحدي ولكنها محنة كل انسان • فالآخرون يرونه اكثر مما يرى نفسه • يرونه من الامام ، ومن الجانب ، ومن الخلف • يرونه من ظهره • اما هو فلا يرى نفسه الا من الوجه ومن خلال مرآة •

المرآة تظل هناك دائما ، قائمة كالشخص الاخر بين الانسان ونفسه • ومع ذلك فأنا لا اكره المرآة ، بل اكاد احبها حبا شديدا • احب النظر فيها طويلا ، والحملقة • احب ان ارى وجهي • الحقيقة اني لا املّ النظر الى وجهي • فهو وجه جميل ، اجمل من اي وجه آخر رأيته

على ظهر الارض • وفي كل مرة انظر اليه ارى جمالا جديدا يكاد يسحرني •

قد لا يستغرب بعض الناس هذا الصدق الشديد ، فالصدق الشديد يصبح مقززا في بعض الاحيان ، او في كل الاحيان • ولكني عاهدت نفسي على ان اقول الصدق • أنا ادرك ان الاستمرار في الصدق مجهد ، يتطلب دائما مزيدا من الجهد والتضحيات • كأن يضحي الانسان بأن يكون جميلا او مقبولا في كل لحظة ، وان يتحمل احيانا درجة من القبح ، في نظر الناس ، اعترف انه قد يكون قبحا شديدا يصل الى حد التقزز • ولكن هذا هو الكفاح المطلوب في العمل الفدائي وفي العمل الفني الجيد ، الذي اكتبه الآن •

يهرني في الوجه بالذات العينان ، فأنا اعشق العيون• واعتقد (وقد يكون اعتقادي بغير علمية معترف بها) ان عيني الانسان جهاز حساس ، بل انه اكثر اجهزته حساسية ، يليه الجهاز التناسلي بطبيعة الحال • شدّتني الى العينين نظرة لها لمعة متحركة في كل الاتجاهات والزوايا كاشعاعات فصّ الماس الحقيقي • وهي نظرة محيّرة فعلا • لانها ليست نظرة واحدة ، يستطيع

الانسان ان يحدد معناها ، نظرة حزن مثـلا ، او نظـرة
فرح ، او نظرة عتاب ، او نظرة خوف ، ليستهـي نظـرة
واحدة ، وانما هي نظرة متعددة النظرات ، وان بدت مـن
السطح وحيدة النظرة ، الا انه سرعان ما تنطوي النظـرة
الاولى وتتلوهـا الثانية والثالثة كصفحات كتاب و كطيات
نسيج رقيق وضعت طبقاته الطبقة فوق الطبقة •••

انشغلت بالعينين عن بقية ملامح الوجه • لم آر الانف
ولم ار الخدين ولا الشفتين ولا اليد الصغيرة التي ارتفعت
في الهـواء ولوحت لي بحركة ناعمة مآلوفة كأنها تعرفني •

سألتهـا : ما اسمـك ؟

قالت : حميدة

وارتفع صوت الاطفال بحركتهم واغنيتهم الدائرية بغير
بدايـة او نهايـة •

حميده ولدت ولـد
سمّته عبـد الصمد
سابته ع القنايـا
خطفت راسه الحدايا
حـد يا حـد

يا بـــوز القـــرد
حميدة ولدت ولـــد

ضحكت كعـــادة الكبار حين يداعبون الصغار وقلت:

ـــ يغنّـــون لـــك ؟ ..

لكنها لم تردّ . لانهـــا كانت قد اختفت من امامـــي في اللحظة التي اهتز فيها رأسي اثناء ضحكي . استطعت فقط ان المح ظهرها الصغير المحنـــي بعض الشيء وهـــو يختفي داخل باب خشبي داكن اللون علقت فوقه يد آدمية خشبيـــة كمطرقـــة .

لم امسك المطرقة كعادة الغرباء حين يدقون الابـــواب المغلقة . كنت اعرف طريقي ، رغم الظلمة الشديدة التـــي تقبع دائما في مداخل تلـــك البيوت ، ولان الشمس ايضا كانت قد غربت منذ زمن طويل . عن يمينـــي رأيت رأس الماعزة يطل من خلف الجدار ، وعن يساري كانت هنـــاك عتبة صغيرة مرتفعة بعض الشيء . تعثرت في العتبة ككـــل مرة ، وكدت اسقط على وجهي لولا خفّة جسمي المعهودة وقدرته العجيبة على الاحتفاظ بتوازنه المختلّ .

ورأيتها نائمة فوق الحصيرة ، مستغرقة في النـــوم .

جفناها نصف مغلقتين ، وشفتاهـــا نصف مفتوحتيـــن ، تتنفس من فمها انفاسا عميقـــة كأنفاس الاطفال العميقـــة ، وذراعاهـــا متكورتان حول رأسها ، ويدهـــا اليمنـــى مطبقة على قرش او تعريفة ، وجلبابها الطويل انحسر عـــن ساقيهـــا الناعمتين الرقيعتين حتى الركبتين ، ورأسهـــا الصغير يهتـــز بحركة ضيلة غير مرئية ، وفكاها الصغيران يضغط احدهمـــا على الآخـــر ضغطة هيّنة توحي بلـــذة تذوب في فمها من قطعة الحلوى مختبئة تحت لسانها .

كان الليـــل مظلمـــا بغير قمر ، والمصباح المشتعل منذ اول الليـــل احترق شريطه ، او نفد زيته ، فاصبح ذؤابـــة ضئيلة ، اطفأتها نفحـــة هـــواء قوية ، وساخنة ، اندفعت فجأة من ناحيـــة الباب ، الذي لم يكن بابا ، فالغرفة لـــم يكن لها الا عتبة صغيرة مرتفعـــة بعض الشيء ، لكـــن ذؤابة الضوء كانت قـــد انطفأت فأصبحت الظلمة شديـــدة الارض كالجدار كالسقف . لا شيء يظهـــر في الســـواد الداكن الا سدّ كبير يسدّ فتحة الباب تماما فيمـــا عـــدا ثقبين صغيرين مستديرين يتوسطان الرأس ، وينفذ منهمـــا ضوء أصفر تشوبه حمرة بلون جذوة النار حين تتقد .

لم يكـــن الشفق قد طلع بعـــد في تلـــك اللحظـــة

الساقطة ما بين آخر خيوط الليل واول خيوط النهار ، فنعثرت قدمه الكبيرة الحافية في العتبة المرتفعة بعض الشيء • لكنه استعاد توازن جسده الطويل العريض ، ووثب كالفهد على اطراف اصابعه المطاطية ، ثم سار على مهل وحذر متخطيا شيئا يشبه البلغة (١)

وبالثقبين اللذين ينفذ منهما الضوء المشوب بالحمرة حدد مكانها فوق الحصيرة ، كعيني قط وحشي لم تستأنس حدتهما وقدرة حدقتيهما على الاتساع في الظلام • وحينما امتدّت اصابعه الغليظة المفلطحة لترفع جلبابها عن فخذيها البيضاوين كانت لا تزال مستغرقة في النوم استغراق الاطفال ، وقد تغيّر الحلم ، وذابت قطعة الحلوى تحت لسانها ، وبدأ البائع يطالبها بالقرش ، وفتحت يدها فلم تجد قرشا ، وامسك البائع الفظ العصا وراح يجري خلفها •

كان جسدها خفيفا صغيرا يطير في الهواء كاجساد العصافير ، وكان من الممكن ان تسبق البائع (لو كانت عصفورا) لكنها احست فجأة وكما يحدث في الاحلام

---

(١) الحذاء بلغة الريف .

تماما ان جسدها اصبح ثقيلا كأنه تحجّر على شكل تمثال تسمّرت قدماه في الارض ، وثبتت ذراعاه بالحديد والاسمنت ، والفخذان اصبحتا من الرخام ، وكل فخذ شدّت الى ناحية ، وتصلبت الساقان في الجو منفرجتين كالمصلوب ، وضربات العصا تنهال بينهما بعنف لم تعرفه من قبل .

صرخت . لكن صوتها لم يطلع . يد كبيرة مفلطحة سدت فمها وانفها فاختنقت ، وادركت انها لا تحلم ، وان جسدا كبيرا له رائحة التبغ ملاصق لجسدها . كانت عيناها مغمضتين ، لكنها استطاعت ان ترى ملامح الوجه ، وتدرك انها تشبه ملامح ابيها ، او اخيها، او عمها ، او خالها ، او ابن خالها ، او اي رجل آخر .

وكانت حميدة تستيقظ كل صباح ككل الاطفال ناسية احلامها ، وتقفز من فوق الحصيرة كالعصفور ، تجري الى امها ، وتشدو بصرخات الاطفال السعيدة حين يستقبلون اليوم الجديد بجسم نام حتى شبع ، ومعدة خوت حتى تفتحت شهيتها لكل شيء ، وان كان قطعة خبز مقدد تكسر الاسنان اللبنية ، او شفطة لبن من ضرع ، او قطعة مش من قاع الزلعة .

ذلك الصباح استيقظت حميدة ككل صباح، لكن الحلم لم يتنس كالاحلام السابقة ، واصابع غليظة تركت آثارا حمراء وزرقاء على ذراعيها وساقيها ، وضربات العصا لا تزال تؤلمها بين فخذيها ، ورائحة التبغ لا تزال عالقة بجلدها .

ظنت امها انها مريضة بالحمى ، فربطت رأسها بمنديل وتركتها راقدة فوق الحصيرة طول اليوم ، ونامت حميدة النهار والليل ، واستيقظت في اليوم التالي ، وظنت انها نسيت الحلم ، وانه ضاع في الزمن وتبخر في الهواء ، كأنما لم يكن ، فقفزت من فوق الحصيرة قفزتها المعتادة ، فيما عدا ثقل خفيف في ساقيها سرعان ما راح حين ارتدت المريلة وجرت مع الاطفال الى المدرسة .

كنت استطيع دائما ان اميز حميدة من بين الاطفال ، فالمريلة من الدمور ، ولونها سمني فاتح ، عليها بقعة من الخلف كانت حمراء من ايام ، حين تسربت نقطة دم من سروالها الصغير الى المريلة وهي جالسة في الفصل . امها كانت تنبهها دائما لتحتاط للامر ، وان تضع الفوطة الدمور بعناية بين فخذيها ، فهي لم تعد طفلة صغيرة ، وكثيرا ما سمعت امها تقول : « في

مثل سنك تزوجت ولم يكن ثدياي قد ظهرا بعد » .

خجل كالعرق كان يندي جبهتها المستقيمة الصغيرة حين تستدير وترى البقعة فوق المريلة ، فتجري على اطراف اصابعها وتخلع المريلة وترتدي الجلباب الطويل ، وتجلس الى الطشت ، وتغسل مريلتها الوحيدة ، ثم تنشرها على الحبل في الشمس لتجف قبل اليوم التالي .

وذات يوم اصبحت المريلة ضيقة ، بصعوبة ادخلت فيها جسمها ، وبالذات من الامام ، عند بطنها . واستقرت عينا امها على بطنها بنظرة غريبة لم ترها من قبل ، ومخيفة الى حدّ ان رعدة خفيفة سرت في جسدها الصغير . والتفّت اصابع امها الكبيرة حول ذراعها النحيل وصاحت :

ـ اخلعي المريلة .

خلعتها وارتدت الجلباب ، وجلست في الشمس بجوار الحائط . كانت امها تناديها لتساعدها في العجين او الخبز او الطبخ او كنس الدار ، او كان ابوها او خالها او عمها يرسلها الى الدكان لتشتري دخانا ، او كانت خالتها او عمتها تناولها طفلها الرضيع لتحمله عنها

حتى تعــود من الحقل ، او جارتها كانت تناديهــا من فوق السطح لتملأ لهــا الجرة من البحر ، او اخوهــا او خالهــا كــان يلقي اليهــا بجوربه وسرواله القذرين لتغسلهما • وعنــد الغروب يلتفّ حولها البنات والصبيــان من اولاد الجيران فينزلون الى الشارع ويلعبون « المساكــة » ، او « عسكر وحرامية » ، او « الثعلب فات فات » او « حبــة ملــح » ،او « حميدة ولدت ولد » •

أيّ شيء من ذلك لم يحدث فــي ذلــك اليــوم • وتركوها وحدها جالسة في الشمس ، ولم تجد بدا مــن التحديق في قــرص الشمس طويــــلا • وحينمــا غابت الشمس ظلت جالسة مكانها في الظلام ، جسدها الصغيــر يرتعد • شيءمــا تحسه ولا تعرفه ، شـــيء مــا رهيب يحدث من حولها ،في الظلام ، وفي الصمت ، وفي العيون ، كــل العيون ، حتى الدجاج الذي كــان يلتفّ حــولها ، لم يقترب منهــا ، والقط الاسود الكبير الذي كــــان يتمسح بهــا اصبح واقفا بعيدا عنها ، يرمقهــا بنظرة وجلة من عينيه الواسعتين ، وبانتصابة من أذنيــه الطويلتيــــن المدببتيــن •

سقط رأسها فوق ركبتيها وهي جالسة • وربما غفت

لحظة او عدة ساعات ، افاقت بعدهـا على اصابع طويلـة تمسك ذراعها . انتفضت مذعورة ، وكادت تصرخ ، لـولا ان يـد امهـا اصبحت فوق فمهـا ، وصوتهـا الخافت اصبح كالفحيح :

ــ تعالي ورائي على اطراف اصابعك .

الليـل مظلم بغير القمر ، والشفق لم يطلع بعـد ، وكل شيء في القرية ساكن نائم في تلك اللحظة الساقطة مـا بين آخر الليـل واول النهار قبل آذان الفجر ، وقدما امها الحافيتان الكبيرتان تنتقلان فوق الارض المتربة بسرعـة كبيرة، توشك ان تجري ، وحميدة خلفها ، تكـاد تلمس طرف ثوبهـا .

أرادت ان تفتح فمها وتسأل امها عن السبب ، لكن امها توقفت عنـد سور صغير يفصل الطريق الزراعـي عن قضبان القطار . وراء هذا السور كانت تختفي حميدة حين يلعبون المساكـة . ناولتهـا امهـا طرحة سوداء .

وضعت حميدة الطرحة على رأسهـا فانسدلت فـوق عنقهـا وكتفيها وصدرهـا وبطنهـا وظهـرها واصبحت تشبه نساء القرية . فتحت فمهـا لتسأل ، لكـن صفارة القطـار جعلت جسد امها يرتعد ، رعدة عنيفـة هـزّت

الارض من تحتها ، وبعنف ايضا اندفعت قبضتها الكبيرة في ظهر حميدة ، وقذفت بها ناحية القطار ، وصوتها الهامس المنخفض كالفحيح :

ــ القطار لا ينتظر أحدا . اهربي !.

اندفعت حميدة نحو القطار ، لكنها استدارت لحظة قبل ان تركب ، ورأت امها واقفة في مكانها ، متسمّرة في الارض ، ثابتة لا تتحرك ، والطرحة السوداء فوق رأسها وكتفيها وصدرها ثابتة ايضا ، فلم يكن صدرها في تلك اللحظة يتحرك ، ولا شيء فيها يتحرك ، ورموشها ثابتة متجمدة ، كتمثال حقيقي منحوت من الحجر .

كان القطار يدخل المحطة ، برأسه الاسود الضخم ينبعث منه الدخان ، وبعينه الوحيدة الكبيرة المضيئة بنور قوي كشف المحطة ، وكشف حميدة وهي واقفة ، فاختبأت وراء عمود . وقف القطار بعد ان اصطدمت عرباته بعضها بالبعض ، واصطكت عجلاته الحديدية بالقضبان الحديدية محدثة صوتا عاليا فاضحا ، خيل اليها انه ايقظ كل اهل القرية ، فاندفعت نحو القطار تخفي وجهها بذيل طرحتها .

مدّت قدمها اليمنى الصغيرة لتضعها فوق سلم القطار ، لكن السلم كان بعيدا عن الرصيف ، ولم تكن قد ركبت قطارا من قبل ، فلم تصل قدمها الى السلم .

عادت بقدمها الى الرصيف . وتلفتت حولها في ذعر . خشيت ان يتحرك القطار ولا تركب . رأت بعض الرجال والنسوة يركبون العربة الامامية فاسرعت ووقفت خلفهم . راقبتهم وهم يصعدون السلم واحدا وراء الآخر . كل واحد منهم كان ، قبل ان يضع قدمه على السلم، يمسك بيده اليمنى مقبضا حديديا على جانب الباب لم تره من قبل . مدّت حميدة ذراعها وامسكت المقبض بكل قوتها ثم شدت جسمها فاصبحت قدمها فوق السلم ، وصعدت الى الداخل .

جلست على اول مقعد قابلها ، ورأت جوارها نافذة فأطلت منها . كان القطار قد تحرك ببطء ، وتصلب رأسها خارج النافذة وهي ترى أمها لا تزال واقفة في مكانها ، ثابتة لا تتحرك ، وطرحتها ورأسها وصدرها ورموشها وكل شيء فيها جامد ثابت .

انفجرت شفتاها لتناديها ، لكنها تذكرت انها لم تعد امها ، وانما هو تمثال الفلاحة القائم عند مدخل

القريـة منذ سنين لا تعرف عددها ، فقد رأته منذ ولدت ، ولا بـد انه كـان هنـاك دائما قبل ان تولد .

كان رأسهـا لا يزال خارج النافذة ، لكن انفاسهـا اصبحت تدخل وتخرج ، تلهث وهي جالسة في مكانها، ولاول مرة تعرف ملمس دموعهـا فوق بشرة وجهها ، ومذاقها في فمها . لكنهـا لم تتحرك ولم تمدّ يدهـا بطرف جلبابها او كمّهـا لتمسحهـا ، تركتهـا تنساب وتجري وتدخـل فمها ، ثم لعقتهـا بلسانهـا دون ان تتقلص في وجههـا عضلة واحدة ، ودون ان يخرج من فمها صوت ، ودون ان يتحرك جفناهـا او تهتـز رموشها ، وكل شيء اصبـح اسود ، وذاب القطار في السواد وامتزج بالليـل ، كالقطرة تذوب في جوف البحـر .

***

في تلك اللحظة كان حميدو لا يزال راقدا فـوق الحصيرة . كان نائمـا وعيناه مغمضتان ، لكنه كان يرى عيني ابيـه في الضوء الخافت ، واقفـا بقامته الطويلـة كجذع شجرة كافور ضربت بجذورهـا في بطن الارض .

سرت في جسده الصغير برودة ثقيلة ، خدّرت ساقيه

وذراعيه ، بذلك الثقل الذي يصيب الاطراف اثناء الحلم المزعج • وظل راقدا في مكانه لا يتحرك ، شاخصا نحو ذلك الشبح الطويل الواقف الثابت بغيرحراك ، وادرك ان شيئا خطيرا قد حدث او سيحدث • كتم انفاسه واختفى تماما تحت اللحاف المسود القذر • اصابعه الصغيرة تشد الغطاء حول رأسه ، واذنه اليمنى فوق الوسادة الصلبة ترتج من تحته بدقات قلبه ، تنبعث من رأسه وليس من صدره •

توقع في كل لحظة ان تمتد الاصابع الطويلة وتشد الغطاء عن رأسه ، وتستقر العينان الواسعتان في عينيه تصب فيهما الشيء الخطير • لكن اللحاف ظل مشدودا حول رأسه ، ودقات قلبه مسموعة في الصمت ، وحركة صدره مرئية في الظلام ، حركة خفيفة نكاد تكون غير مرئية ، كرؤوس الاشجار في ليل ساكن بغير نسمة هواء واحدة ، وبغير قمر ، والظلمة كاللحاف الاسود تلف السماء والارض في تلك اللحظة الساقطة ما بين اخر الليل واول النهار ، قبل ان تبدأ خيوط الفجر وبزحف الظلام صاعدا ببطء ، كحوت ضخم يسبح في محيط لا نهائي ، ترقد في قاعة بيوت القرية الطينية الصغيرة المتلاصقة ككوم من السباخ الاسود •

وحين فتح حميدو عينيه كـــان ضـــوء النهار يمـــلأ الغرفـــة . وايقـــن ان ما رآه لم يكـــن الا حلمـــا ، فقفز من فوق الحصيرة وجرى الى الشارع . كـــان اصدقاؤه من اطفال الجيران يلعبون كعادتهم فـــي الحـــارة الضيقـــة الممتدة امام البيوت ، يمسك كل واحد منهم بذيل جلباب الاخـــر ويصنعـــون قطارا يصفق ويرقص ،ثم يتفككون ويلعبون المساكـــة ، يختبئـــون وراء اكـــوام السباخ ، وفي الزرائب ، وخلف زير الماء ، وداخل فتحة الفرن .

رأى حميدة تجري وسط الاطفال ، وتختفي وراء كوم السباخ . جلست القرفصاء حتـــى لا يظهـــر رأسهـــا مـــن خلف الكوم ، فظهـــر فخذاها البيضاوان يتوسطهمـــا شريط رفيع من الدمور الاسمر هو سروالها . خبـــأت رأسهـــا الصغير بشعرهـــا الاسود الناعم في التـــراب حتى لا يراهـــا احد . لكـــن حميدو كـــان يراهـــا ، وكان هو « المساكـــة » هذه المرة ، فانطلق يجري نحوهـــا مثيـــرا بقدميـــه الحافيتين زوبعـــة من التراب .

ثبت عينيه على كـــوم السباخ ، متظاهـــرا بانـــه لا يراها ، وسار على اطراف اصابعه بخطوات بطيئة حذرة ، واستدار ليختفي وراء الكوم ، ثم وثب وثبة واحدة كالفهد ، وامسكها من شعرهـــا بيده اليمنى . امـــا يـــده اليسرى

فقد امتدت بسرعة البرق واستقرت فوق فخذها ، وراحت اصابعه الصغيرة الصلبة تشد سروالها • لكن حميدة رفسته بقدمها ، ونطحته برأسها ، كما تفعل في كل مرة حين يمسكها المساكة ، واستطاعت ان تتخلص من قبضته وجرت لتختبيء وراء كوم اخر •

لم تكن حميدة وحدها تلعب المساكة • كل البنات والاولاد يلعبونها ، وحين تجري البنات ليختبئن ويجلسن القرفصاء تتعرى افخاذهن الصغيرة البيضاء ، وتظهر سراويلهن الرخيصة القذرة كالشريط الرفيع الاسود بين الفخذين ، يحاول المساكة ان يمسكه ويشده الى اسفل ، لكن البنت تعرف كيف ترفسه بقدمها ، او بقدميها الاثنتين ، وهو ايضا لا يستسلم ، وانما يقاومها بقدمه ايضا ، او بقدميه الاثنتين • معركة صغيرة غير مرئية ،فكوم السباخ يخبيء جسديهما الصغيرين ، لكن الاقدام الاربع تطلّ من وراء الكوم ، صغيرة وناعمة لا تعرف قدم البنت من قدم الولد ، لان الاقدام في سن الطفولة كالوجوه ، لا جنس لها ، خاصة اذا كانت اقداما حافية، فالحذاء وحده هو الذي يحدد الجنس •

انكفأ على ظهره حين رفسته بقدمها ، لكنه نهض

بسرعـــة ، وكانت هي ايضا قد نهضت ، ورأى وجهها • لم تكـــن حميدة • تلفت حوله ، في وجوه البنات والاولاد • جرى الى البيت يبحث عنهـــا في الزريبة ، او في فتحـــــة الفرن ، او خلف زير الماء ، او تحت الحصيرة •خرج مـــن البيت جريا يبحث عنها وراء اكوام السباخ ، خلف جـــذع الشجرة، فوق النخلة ، في بطـــن جسر الترعة • أدبـــر النهار وهبط الليـــل ولم يعثر لها على اثر •

وقف في الظلام على جسر الترعة، ظله الوحيد منعكس على صفحـــة المياه الراكدة العكرة • ظل طفل لا يـــزال طفـــلا ، لكـــن وجهه لم يعـــد كوجوه الاطفال الناعمـــة الملساء لا تعرف الذكـــر فيهـــا من الانثى • لو كانـــــت صفحـــة المياه نقيـــة كالماء العذب ربمـــا اصبحت مـــرآة صافيـــة وانعكس وجهه على صفحتهـــا بطريقة افضل • لكـــن الترعة كانت كجميع الترع ، يختلط طينها بمائها ، ويتعرج سطحهـــا البطيءالحركة بثبات وتجاعيـــد كبشرة الوجه العجوز الموغل في الزمن •

اما عينـــاه فقد اصبحتا ايضا واسعتين ، عجوزيـــن ، شاخصتين في الظلام ، ثابتتين ، الجفنـــــان لا يتحركان ، والرموش تجمدت ، ودمعة كبيرة تجمدت فوق السطح •

لاول مرة تتجمـد الدمعة فوق السطح ،وكانت من قبـل كدموع الاطفال لاتكف عن الحركة المستمرة الى حد الرعشة كرعشـة النجم المتلألىء ، ويخلط المرء في الطفولـة بين لمعـة الدموع ولمعـة الابتسام .

لكن احدا لم يكـن يخطىء في تلـك اللحظة . انه حميدو الان الواقف بجسده على جسر الترعة . انه ليس طفـلا . وهذه الدمعة الكبيرة ليست دمعة طفل ، وانمـا هي دمعـة حقيقية ، لهـا ملمس مادي فوق الوجه، ولهـا طعـم الملح فـي الفـم .

ملح حقيقي ، فالدموع ككل سوائل الجسم تحتـوي على الملح ، وحميدو لا يعرف كيف يعيش بغير حميدة ،فهي ليست اختنا عاديـة ، ولكنها توأمه . والتوائم نوعـان . نوع ينشأ عن الجنينين يعيشان في رحم واحدة ، ونوع اخر ينشأ عـن ذكر وانثى داخل جنين واحد .

وكان حميدو وحميدة جنينا واحدا ، ينمو داخـل رحم واحدة . منذ البداية كانـا شيئا واحدا ، او خليـة واحدة ، ثم اصبح كل شـيء ينقسم اثنين ، والملامـح انقسمت اثنين ، ادق الملامح انقسمت اثنين ، حتى العضلة الضئيلة الصغيرة تحت كل عين انقسمت ، ولم يعد ممكنا

لاحد ان يعرف حميدو من حميدة ، حتى امهما كانت تخلط بينهما .

لكن حميدو كان يعرف انه شيء آخر غير حميده ، وان جسده منذ الولادة انفصل عن جسدها ، غير ان الشبه كان شديدا ، والخلط بينهما شديدا الى حد ان الامر كان في بعض الاحيان يختلط عليه هو ايضا فيظن انه حميده ، ويختفي وراء جدار ، ويرفع جلبابه عن فخذيه وينظر بينهما ، وحينما تسقط عيناه على الشق الرفيع الصغير يدرك انه حميدة ، وتسقط فوقه العصا تمسكها اليد الكبيرة فيشد الجلباب عليه ، ويبكي بدموع حقيقية ، تختفي بسرعة كدموع الاطفال ، ويرى العصا ملقاة على الارض ، فيجري اليها ويأخذها ، ويدسها في جيب جلبابه الطويل ، ومن حين الى حين تمتد يده الى جيبه يتحسسها ، وتسري صلابتها في اصابعه وتنتقل الصلابة الى ذراعه وكتفه وعنقه . ويشد عضلات عنقه فاذا برأسه ينثني الى الوراء في حركة تشبه حركة ابيه ، ويتكلم من حلقه بصوت غليظ يقلد به صوت ابيه .

وحينما تسمع حميدة صوته الغليظ تدرك ان العصا معه . لم تكن ترى العصا بطبيعة الحال لكنها كانت

تعرف انه يخبئها تحت جلبابه ، في مكـان ما تحت الباب .
وتجري لتهرب منه ، فيجري وراءها . ويظـن من يراهمـا
انهمـا يلعبـان ، لكـن حميدو لم يكـن طفلا ، وفـي
جيب جلبابه شيء يخبئه ، شـيء صلب يتدلى بحـذاء
فخذه كالعضـو الغريب .

وحينمـا ترفع حميدة عينيهـا اليه وتـرى وجـهه
لا تعرف انه حميدو . وتتسمّر في مكانهـا من شـدة
الدهشة او الذعر . لا تتحرك من مكانها . تتجمد كتمثال ،
يضع حميدو كفه فوق سطحه ، ويلمس الجفنين الحجريين
ويضع اصبعه بين الجفـن والعين ، كاصبع كل الاطفال حين
يمسكون رأس دمية كبيرة الحجم لهـا شعر ولهـا رموش
تكاد ان تكـون حقيقيـة .

ولم يكن حميدو قد امسك في حياته قط برأس دمية
كبيرة او صغيرة . فالاطفال في الريف لا يلعبون بالدمى،
ولا يلعبون بالعرائس ، ولا يلعبون بالقطارات او مراكـب
الورق او الكرة او اي شيء اخر . انهم لا يعرفون اللعب .
فاللعب للاطفال ، وهم ليسوا اطفالا . انهم يولدون كبارا
كيرقات الذباب ما ان تعرف ملمس الارض حتى تطير ،او
كدود المش تنفصل الدودة الجديدة عن الدودة الام فـلا
تكـاد تفرق بيـن الدود الجديدوالدود القديم .

ورأى حميدو وجه حميدة مقبلا من بعيد علـى جسر الترعة . وخفق قلبه بفرحـة الاطفال القديمة ،لكنهـا اقتربت منه . وعرف طرحـة امه السوداء تلف الـرأس وتنسدل فوق الكتفين والصدر والبطن . جرى اليها ووضع رأسه على بطنها .. لم يكـن رأسه وهو واقف الى جوار امه يرتفع لاكثر من خصرها . امتلأ انفه برائحة امه المميزة تمتزج برائحـة خبيز الفرن وتراب الحقل والجميز . كـان يحب الجميز ويجري نحـو امه حين تعـود مـن الحقـل تلف الجميز فيطرحتها ، ثم تجلس على الارض الى جواره، وتناوله الجميز واحدة واحـدة بعـد ان تنفخ عنهـا التـراب .

دفعته أمه بيدها . لكنه ظل ملتصقا بهـا ، متشبثـا بجسمها . واستطاع أن يضع رأسه تحت ثديها الايسر . في هذا المكان بالتحديد كان يحب أن يضـع رأسه حين ينام الى جوارها كل ليلة . كانت تنام بعيـدا عنه ، في الطرف الآخر من الحصيرة ، لكنه كان يصحو في منتصف الليل ، وحينما لا يراها الى جـواره يزحف اليها ، ويدفن رأسه تحت ثديها .

لم تكن تبعده عنها دائما ، وتمتد ذراعاها وتلتفـان

حوله وتضغط عليه بقوة ، بكل قوتها الى حد انها تؤلمه •
ويسري في جسده احساس غامض بأنهـــا ليست أمه ،
وليست خالته ، وليست عمتـــه ، وليست أية واحدة من
قريباته • وانما هي غريبة عنه ، وجسدها غريب عن جسده ،
غرابة تجعله يقشعر ، والقشعريرة تسري من السطح الـــى
العمق ، ترجّ جسده كرعدة الحمى •

ولفّ ذراعيه حولها من شدة الرعدة ، لكنـــه أحس
قبضة يدها الكبيرة القوية كقبضة أبيه تدفعه بعيدا وكـــاد
يسقط في حضن الجسر ، ورفع وجهـــه اليها ، ورأى عيني
أبيه الواسعتين العجوزين يجري فـــوق بياضهمـــا الكبير
شعيرات دموية حمراء • اشتدت الرعدة وكاد يصرخ من
الفزع ، لولا ان يد أبيه الكبيرة أصبحت فـــوق فمه ،
وصوته الغليظ أصبح كالفحيح :

ـ تعال ورائي •

الليل مظلم بغير قمر ، والشفق لم يطلـــع بعد ، وكل
شيء في القرية ساكن نائم في تلك اللحظة الساقطة ما بين
آخر الليل وأول خيوط النهار قبل آذان الفجر ، وقدمـــا
أبيه الحافيتان الكبيرتان تنتقلان فوق الارض المتربة بسرعة

كبيرة ، يوشك أن يجري ، وحميدو خلفه ، يكـاد يلمس ذيل ثوبه •

أراد أن يفتح فمه ويسأل أباه ، لكن أباه توقف عند سور صغير يفصل الطريق الزراعي عن قضبـان القطار • وراء هذا السور كـان يختفي حميدو حـين يلعبون « المساكة » • ناوله أبوه شيئا طويـلا ، صلبا وحادا ، لمع في الظلام كالسكين •

دس حميدو السكين في جلبابه فسقط في قاع جيبه وتدلى بحذاء فخذه • أحس طرفه المدبب الحاد فوق لحمه فتقلصت عضلات فخذيه وساقيه وقدميـه ، وتسمر في مكانه • لكن صفارة القطار الحـادة جعلت الارض تهتز تحته ، فثبت قدميه في الارض يقـاوم أي حركة كجواد جامح ، لكن يد أبيه الكبيرة دفعته في ظهره بقبضتها القوية، وصوته الغليظ المنخفض كالفحيح :

ــ العار لا يغسله الا الدم • اذهب وراءها !

واندفع حميدو نحو القطار ، لكنه استدار لحظة قبل أن يركب ، ورأى أباه واقفـا في مكـانه ، متسمرا في الارض، ثابتا لا يتحرك، والجفنان أيضا ثابتان، والشعيرات

الدموية فوق البياض تجمدت كخيوط من الـــدم رسمت باليد فوق لوحة حقيقية .

* *

في تلك اللحظة كانت حميدة تضع قدمها فوق سلم القطار لتهبط منه . وكأنما سقطت في بحر ، بحر هائج . الامواج ليست ماء ولكنها بشر . رجال ونساء وأطفـال يرتدون الاحذية الجلدية السميكـة ، وعربات كالقطارات تجري صفوفا صفوفا فوق شوارع لامعـة بغير تراب ، تتفرع وتتشابك ثم تتفرع بغير نهاية كشجرة رأسها فـي السماء وجذرها في بطن الارض ، والبيوت عالية شاهقـة متراصة في كتلة واحدة ضخمة تحجب السماء ، فلا ترى فيها العين شبرا واحدا ، والضجيج والاصوات والابواق تصم الاذن فلا تعود حميدة تسمع شيئا . لكن قدميهـا الحافيتين كانتا تنتقلان وحدهما فـوق الاسفلت ، القدم ومن خلفها القدم الاخرى ، تلك الحركة الطبيعية ، حركة المشي التي يتعلمها الانسان منذ الصغر . وكان من الممكن أن تستمر على هذا النحـو دون توقف ، فهي لا تعرف طريقها ، ولا تعرف أين يبدأ والى أين تنتهي ، لكن حذاء جلديا سميكا داس على أصابع قدمها اليسرى وكاد يفرمها،

فترنحت لحظة ، فاذا بعربة ضخمة تكاد تدهمها ، وصرخت حميدة • انفتح فمها عن آخره وخرج منه صوتها المكتوم في صرخة حادة طويلة ، طول صرختين أو ثلاث صرخات ، أو عشر ، أو مئة ، أو ألف • صرخـــة متتابعة ، متعاقبة ، متصلة في صرخة واحدة طويلة •

ابتلع الضجيج الصاخب صرختها كما تبتلـع أمواج البحر قطرة ، أو قشة ، أو فراشة ، أو عصفـــورا وليدا لا يطير • لم يسمع صوتها أحد ، وظلت الدنيا كما كانت تهدر كالشلال ، تفتت مياهه الساحقــــة أجساد التماسيح وأشلاء السفن ، وتذيبها ، وتظل مياهه هي مياهه ، بيضاء كما كانت •

سارت حميدة تعرج بقدمها الجريحـــة ، وجلست في ركن بجوار سور بعيد عن العربات والنـــاس • أسندت رأسها الى السور وحملقت بعينيها أمامها • كل شيء مــن حولها يدور في غموض ، يلفّه الضبـــاب ، كالحلم ، أو الكابوس ، الذي ستفيق منه بعد قليل ، وتقفز مــن فوق الحصيرة كالعصفورة • اتكأت بيدها لتقفز ، لكن كفّهـــا لمس بطنها ، فانقشعت فجأة عن عينيها غمامة ، ولاول مرة يصبح كل شيء أمامها قابلا للفهم ، ليس ذلك الفهم المدرك

لحقائق جديدة ، ولكنه الفهم الغريزي المبهم الذي ينبعث من خلايا الجسد المرهقة في لحظات الراحة أو الاسترخاء الشديـــد •

نامت في مكانها ثم صحت جائعة • لمحت الى جوارها مخبزا ، رصّت أمامه أرغفة الخبز صفوفا صفوفا • مدت ذراعها النحيلة وأمسكت بأصابعها الصغيرة رغيفا • قربته بسرعة الى فمها وكادت تقضمه بأسنانها ، لكن يدا كبيرة لها أصابع طويلة التفّت حول ذراعها •

شهقت •• ارتفـــع صدرها بالشهقـــة فظهر ثدياها الصغيران من تحت الجلباب الواســع كزيتونتين ، وبرز بطنها المنتفخ كبالونة الاطفال ، والطرحة السوداء لا تزال تغطي رأسها وشعرها وتنسدل على كتفيهـــا حتى أسفل ظهرها قبل ردفيها الصغيرين بقليل •

رفعت عينيها المذعورتين ورأت أمامها عينين واسعتين تحملقان فيها • شدّت طرحتها وأخفت بها نصف وجههـا كما تفعل نساء قريتهـا • ظهرت عينها الوحيـــدة واسعة سوداء فيها نظرة مشدوهة لا تزال بها لمعة طفولة ساذجة • لمعة عين كانت مغمضة ، ففتحت لاول مرة على عالم بغير

حدود ، وصنع الذعر حولها عضلة مشدودة بدت كالدائرة المفتوحة أو كعلامة استفهام مبتـــورة الذيل ، والدموع الجافة خلعت فوقها طبقة كالسحابة الخفيفة ، يزحف نحوها من زاوية الانف احساس جديد بأنها أنثى وليست ذكرا ، أنوثة لم تكتمل بعد ، ولم يعرفها أحد بنفسها ، ولكنها هي التي اكتشفت نفسها بنفسها منذ لحظات ، فاذا بها فجـة طازجة لا يزال يعلوها الندى .

تملّصت من اليد الكبيرة واستطـاعت أن تفلت . وانطلقت تجري . جرى وراءها. دخلت في شارع واختبأت وراء باب من الابواب . أطلت برأسها فلم تجـــد أحدا . خيل اليها انها نجت ، لكن الذراع الطـــويلة امتدت من الخلف وأمسكتها من رقبتها ، وصـــوت خشن غليظ دبّ في أذنها :

ــ قبضت عليك يا لصة ! أمامي الى القسم !

استسلمت . تركت ذراعهـا النحيلة البيضـــاء في قبضته ، قبضة يد غليظـــة كبيرة ، لها خمســـة أصابع ، مفاصلها بارزة وعظامها مقوسة ، والعروق من تحت الجلد نافرة ، وتحت الاظافر السميكة طبقـــة طينية سوداء .

زحفت عيناها فوق ذراعه الطويلة ورأت كتفيه • كتفان عريضتان ، فوق كل كتف صف أفقي من خمسة أزرار نحاسية ، يفصل بينهما عنق غليظ ، التفّت حوله ياقة عالية ، اسودّت من الداخل بسبب التراب الذائب في العرق ، تدور الياقة حول عنقه باحكام ، ثم تهبط من الامام فوق صدره في صف رأسي من عشرة أزرار نحاسية • كانت حميدة قد تعلمت شيئا من الحساب في المدرسة الالزامية ، فأخذت تعد الازرار • خمسة فوق كل كتف ، أي عشرة فوق الكتفين ، وعشرة فوق الصدر ، فيكون المجموع عشرين زرا •

النهار كان قد انتصف ، والشمس أصبحت متوهجة ، ينعكس قرصها الاحمر فوق الازرار النحاسية المستديرة ، فتبدو كعشرين قرصا شمسيا تدمع العين لمجرد النظر اليها ، ولا تقوى على الحملقة فيها فتطرق الى الارض • لكن الارض تلتهب تحت قدميها الحافيتين بسخونة لم تعهدها في الارض من قبل ، وحذاؤه ذو الرقبة الطويلة يدبّ بصوت معدني غريب ، يشبه احتكاك الحديد بالحديد • وخطوته واسعة ، وقدمه حين ترتكز على الاسفلت تصبح ثابتة ، والقدمان ترتفعان الى ساقين

طويلتين داخل بنطلون من قماش سميك لــه جيب طويــل كالسرداب تختفي فيه آلة صلبة حــادة ، وتتدلى بحــذاء فخـــذه •

دخلا من الشارع الواسع الى شارع ضيق • الاصابع الطويلة لا تزال تلتف حول ذراعها • لكنها ليست خمس أصابع كما كانت • أصبحت أربــع أصابع • أمــا الاصبع الخامس فقد انفصل عن بقية الاصابع وصعد وحده الــى أعلى ، فوق الذراع الناعمـــة ، حذرا متلصصا ، ثم دفن رأسه الاسود الغليظ تحت الابط الاملس الطفولي الذي لم ينبت فيه الشعر بعد •

شدّت ذراعها • لكن الاصابع الاربعة تقلصت على لحمها الطري ، والاصبع الخامس امتد مــن تحت الابط واصلا ببوزه الاسود المدبب حتى الارتفاعة الناعمة لبرعم الثدي ، يضغط عليه ضغطات حــــذرة مرتعشة متقطعة ، تزداد شدة في ثنية شارع ، أو خلف جــدار ، وتخف أو تنعدم تماما في وسط الشارع ، وأحيانا يتراجع الاصبــع الخامس سريعا ويلتصق باخوته الاربعة حين يمران أمــام حشد من الناس •

ملأت أنفها فجأة رائحة نتنة • ووجدت نفسها فــي

زقاق ضيق مظلم • أمام باب خشبي صغير رأته يتوقف • أخرج من جيبه مفتاحا • دفعها أمامه الى الداخل ثم أغلق البـــاب •

لم تر شيئا أول الامر ، فالظلام دامس • أشعل بعود ثقاب مصباح كاز صغيرا فظهرت على الفور أرض بـــلاط ضيقة ، في أحد أركانها بساط يشبه الحصيرة ونـــافذة حديدية صغيرة فوقها قلة ماء • جدران الحجرة تبدو في الضوء الخافت رمادية يعلوها سواد كالهباب الذي يحدث من موقد الكاز • على أحد الجدران مسمار عليه بدلة من قماش سميك يشع من فوق صدرها وكتفيها العريضتيـــن المحشوتين أزرار نحاسية صفراء ، لمعت في الظلام كعيون مفتوحة مريضة بالتهاب الكبد الفيروسي • عـــلى الارض استقر الحذاء الضخم برقبته الطويلة كحيوان بغير رأس ، والىجواره سروالأبيض اصفر" ظهره واسود" بطنه ، تفوح منه رائحة بول قديم •

رفعت رأسها من فوق البلاط فرأته واقفا عاريا• كتفاه العريضتان أصبحتا نحيلتين ضامرتين عظامهمـــا بارزة ، وساقاه أصبحتا رفيعتين معوجتين ، وقدماه الضخمتـــان السميكتان المرتفعتان عن الارض أصبحتا لا يفصلهمـــا عن

البلاط شيء ، والآلة الحادة الصلبة التي كانت مختفية في جيبه أصبحت ظاهرة •

شهقت بدهشة مليئة بالذعر • قاومت الذعر برد فعل غريزي • لكنه طرحها على الارض ، وشد باصبعه الغليظ جلبابها من فتحة العنق فانشطر الثوب البالي شطرين ، ولم يكن هناك ملابس داخلية تحت الجلباب •

قالت بصوت ضعيف مشروخ :

ـ انت مين ؟

رد بصوت آمر غليظ :

ـ أنا الحكومة •

قالت :

ـ ربنا يطول عمرك سيبني أروح •

رد بصوت آمر غليظ :

ـ تروحي فين يا بت ، انت محكوم عليكي •

كل شيء أصبح يتحرك بسرعة فائقة ، بسرعة الانفاس التي تلهث ، وبسرعـــة العضلات التي تنقبض وتنبسط ، سرعة غير عادية لا تحدث الا في الاحـــلام ، لكن الحلم لم يختلط هذه المرة ، لم يكن هناك بائع يضرب بالعصا ،

وانما هو ذكر له شارب خشن يحتك بوجههـــا ، وتسد رائحة التبغ أنفها ، وشعر صدره غزير ، تلاحمت شعراته الطويلة والتصقت فوق الجلد بعرق سميك لزج .

وكل شيء توقف فجأة . لحظة سكون تشبه لحظـة الموت . رفعت رأسها من فوق البلاط وتلفتت حولهـا . رأته راقدا على ظهره ، عيناه مغمضتان ولا يتحرك . ظنت انه مات ، لكن شخيرا خافتا بدأ ينبعث من فمه المفتــوح ، ما لبث أن ارتفع وأصبح كخرير ساقية عتيقة يجرها ثــور منهك مريض . رفعت جسمها بهدوء من فــوق الارض ، وشدّت طرفي جلبابها المشطور فـــوق صدرها وبطنها . سارت على اطراف اصابعها الى الباب . حركت رأسهـــا بهـــدوء ونظرت خلفهـــا . رأت العيون العشريـــن الصفراء مفتوحـــة تحملـق فيهـا . فتحت الباب بسرعة .

رأت الشارع الواسع أمامهـا ، فانطلقت فيه بكـل قوتها تجري هاربة بغير توقف .

* *

في تلك اللحظة ، كان حميدو قد هبط من القطار ، وأصبح ظهره ناحية الجنوب ووجهه ناحية الشمال ، وعيناه أمامه تنظران ، تحملقان في الوجوه المحتشدة خارج محطة

باب الحديد ، المحطة الرئيسية القديمة لمدينة القاهرة ، وقدماه الحافيتان تنتقلان فوق الارض الاسفلت ، وجلبابه طويل واسع ، تهتز من تحته السكين ، وتتدلى بحذاء فخذه كطرف صناعي أو عضو مزروع •

ارتطم بوز السكين الحاد المدبب بلحم فخذه فاقشعر جسده ، وسرت القشعريرة في عنقه ورأسه • ترنح ، وكاد يسقط بين الاحذية الجلدية السميكة ، لكنه شدّ عضلات ساقيه وظل منتصبا فوق قدميه الحافيتين ، وعيناه تائهتان في الخضم الواسع المتلاطم ، ترتفعان مع قمم العمارات الشاهقة ، وتهبطان مع شعاع الشمس المنعكس على الاسفلت اللامع ، وتدوران مع حركة الميدان المستدير ، وفي مركز الدائرة تمثال حجري ضخم له رأس انسان ، تلفّ حوله صفوف من البشر ، والاعلام ، وصفوف من العربات ، تلفّ وتدور ثم تتفرع منتشرة في خطوط مستقيمة متعددة ، لا تلبث أن تتشابك وتصبّ في ميدان آخر ، ثم تتفرع ، وتنقسم الفروع الى فروع ، تتفرع ، وتتشابك ، وتتفرع بغير نهاية •

أخفى عينيه بيديه ، وأسند رأسه الى عمود نور • غلبه النوم فنام وهو واقف على قدميه • فتح عينيه على صوت • تلفّت حوله • رأى الشارع الواسع هادئا خاليا

من الناس والعربات ، غارقا في ظلمة الليل • ثقب الظلمة بعينيه الحادتين • لمح شبحا يجري من بعيـــد ، قدمـــاه حافيتان ، والجلباب الواسع الطويل يرتفـــع فوق البطن ارتفاعة مرئية واضحة •

انفرجت شفتاه وتدافعت أنفاسه لاهثـــا : حميدة • وانطلقت قدماه فوق الاسفلت ، يـــده اليسرى مرفوعة أمامه تشق الظلمة ، ويده اليمنى في جيبه تتحسس النصل الحاد الصلب • توقف الشبح في ركن مظلم • اقترب منه حميدو بخطوات بطيئة حذرة • أصبحت المسافة بينهمـــا خطوة واحدة • سمع الصـــوت الخشن يهمس كالفحيح : « العار لا يغسله الا الدم » • انتزع السلاح مـــن جيبه وأخفاه خلف ظهره • كشف الركن المظـــلم فجأة ضوء كشاف متحرك • رأى وجه أمه من تحت الطرحة السوداء • صرخ • دوت صرختـــه في الليل فتوقف الضـــوء فوق وجهه • اقترب منه شخص لم ير عينيه في الظلام ، لكـــن على كتفيه وفوق صدره رأى صفين مـــن العيون المحملقة المستديرة تشع ضوءا أصفر •

انفرجت شفتاه ليسأل ، لكن كفا كبيرة غليظة سقطت فوق صدغه ، تبعتها كف أخرى فوق الصدغ الآخر • رفع

ذراعه ليقاوم الصفعات لكـــن خمسة أصابع التفّت حول ذراعه • استعان بذراعـــه الثانية فارتفعت في الجـــو ذراع خشبية كالشومة سقطت فوق رأسه •

حينما فتح حميـــدو عينيه شعر بصـــــداع شديد • تحسس رأسه وعثر بين الشعر على الجرح تغطيه قشرة من الدم الجاف • هرشها فسقطت على الارض الى جوار حذاء ضخم يرتفع الى رقبة جلدية تحوطها ثنية بنطلون من قماش سميك ، والساقان طويلتان ترتفعان الى صدر مربع عريض رشق عليه من الامام وفوق الكتفين صفّان مـــن الازرار الصفراء المستديرة ينعكس عليها ضوء مصباح خافت •

داس الحذاء الضخم عـــــلى قشرة الدم وهرسهـــا بوحشية ، ثم دبّ فوق الارض فارتفع في الجو صـــوت غليظ خشن :

ـــ ما اسمك ؟

ـــ حميدو •

مشت الموسى الحادة فـــوق جلدة رأسه فأصبحت صلعاء ، وسقط شعر رأسه الغزير في جردل مع جلبابـــه الطويل الواسع • كانت الشمس مائلة في أول الصبـــاح

المبكر ، فرأى ظل شخص طويل عريض الكتفين يتبعه فوق الارض • توقف الظـــل • تحرك فتحرك • ضرب الارض بقدمه فسمع صوتا معدنيا غريبا لم يعهـــــده من قبل حين كان يضرب الارض بقدمه الحافية • نظر الى قدميه • رأى الحذاء السميك الضخم يرتفع في الرقبة الجلدية الطويـــلة والبنطلون من القماش السميك وداخل كل منهما ساقـــه الحقيقية النحيلة ، والساقان ترتفعان الـــــى صدر عريض مربع مغلق بصف مــــن الازرار النحاسية ، والكتفـــان عريضتان محشوتان بالقطن أو القش •

داس بحذائه على الارض في خطوات بطيئة وجلة • داخل كل فردة حذاء ترقد قدمه النحيلة الصغيرة منكمشة، منضغطة تحت الجلد السميك ، أصابعها رفيعة بيضـــاء ، لا يجري فيها دم ، ولا تسري فيها حركة ، ميتة أو شبـــه ميتة ، وحركتها داخل الحذاء معدومة • الحذاء هو الذي يحركها ، يرفعها ويخفضها ، وينقلها فوق الارض خطـــوة خطوة • وفي كل خطوة يصطك حـــديد الكعب بالاسفلت محدثا صوتا معدنيا وبطيئا كاصطكاك حافر عجـــل مريض مساق الى المذبح •

توقف ، فتوقف الظل الاسود المرسوم بعناية فـــوق

الارض ، رأســـــه حليق أملس انعكست عليه الشمس ، والعينان ثقبان في الرأس ينفذ منهمـــا الضوء ، والعنق عضلاته مشدودة ، وعضلات الظهــر مشدودة ، وجــدار البطن مشدود من تحته معدة مشدودة ضامرة لم يدخلها الا دخان أسود ، ولعاب أسود ، وكسرة خبز مقددة غمست في عسل أســود ، مع قطعة من بصل،أو قطعة مخلل تلسع كالعلقم ، يصلح بالعلقم طعم العسل الاسود ، ثم يصلــح طعم العلقم بالدخان الاسود ، يشفطه بأنفه وفمه وبلعومه ليملأ به صدره ، ويضغط به على معدته فيتجشأ كالــذي شبــــع .

لسعه كرباج رفيع خلف عنقه فتحركت قدماه فــوق الارض . القدم اليمنى أولا ثم القدم اليسرى . اصطكّ الحديد بالاسفلت في دقات منتظمـــة ، كدقات الساعة ، أو ضربات القلب : كب . دب . كب . دب . شمــال . يمين . شمال . يمين .

دوى الصوت القوي الخشن في الجو :

ــ قف !

اصطكت فردتا الحذاء بعضهما بالبعض ، والتصقت ساقاه وفخذاه بعضلات منقبضة . امتدت يده اليمنى فــي

جيبه واستقرت فوق آلة القتل الصلبـــة ، تمتد صلابتها بحذاء فخذه وتنتهي برأس معدني مدبب ومثقوب •

صاح الصوت الخشن :

ـ انتباه !

التفّت أصابع يده اليمنى حول الآلة ، أربعة أصابع فقط وانفصــل الابهـــامليصبح وحـــده فوق الزنـــاد ، واحدى عينيه صوبت الى النقطة المحددة الثابتة فيمنتصف المسافة بين العينين المفتوحتين •

فتح فمه ولهث • لكن يدا قوية ضربته على بطنـه والصوت الخشن دبّ في أذنيه :

ـ اغلق فمك واكتم نفسك •

أغلق فمه وكتم نفسه •

صاح الصوت الخشن الآمر :

ـ العار لا يغسله الا الدم !

وضغط بابهامه على الزناد •

سمع دويا لم يسمعه من قبل ، ورأى جسدا يسقط على الارض يجري من تحته سائل أحمر عرفه على الفور • انه دم الشاة • فاليوم هو العيد ، وهو لا يزال واقفـــا

يحملق في العينين المفتوحتين ، الساكنتين ، لا يرمش لهما جفن ، ثابتتين بنظرة ميتـــة ، اتسعت وامتلأت بالذعر ، وانتقل الذعر اليه فارتجفت ساقاه النحيلتان تحت الجلباب الواسع ، وجرى ليدفن رأسه في صدر أمه ويبكي •

ومسح دموعه في صدر أمه ثم رفع عينيه اليهـا ، ورأى عيني أبيه تكسوهما الشعيرات الدموية • والازرار النحاسية الصفراء فوق الصدر والكتفين كانت لهـا لمعة خاصة ، والصوت الاجش كانت له خشونة آمرة مخيفة : أتبكي كالنسوان ؟

وعاد حميدو الى مكانه من الصف • وقف منتصبا ، تحت قرص الشمس ، عينـــاه بلون ضـــوء الشمس ، حمراوان ، سوادهما هرب تحت الجفن في الظل ، في المكان الامين الرطب • الجـو في الخارج شـــديد الحرارة • الاسفلت ملتهب ، أذابته السخـــونة الشديدة فأصبحت كعوب الاحذية تنغرز فيه كما تنغرز في الارض الطينية •

توقف حميدو لحظة ليشد حذاءه • تخلف خطـوة عن الصف • لسعه الكرباج عـــلى قفاه • قفز ليلحق بالصف لكنه انكفأ على وجهه وسقط على الارض •

قبل لحظة السقوط كان حذاؤه قد انخلع ، وكـان الهواء الساخن قد اندفع في صـــدره على شكل كلمـة منطوقة لها صوت أدرك انه صوته حين ينطق • وأدرك ان جسده هو الذي سقط على الارض وليس جسدا آخر ، وان الدقات المنتظمة المسموعة في أذنه تنبعث من صدره • وشعر بزهو لقدرته على تمييز جسده عن جسد الشاة •

ظهر الزهو في عينيه ، وكان وجهه لا يزال ناحيـة الارض ، فطارت البصقة من الفم الغليظ واستقرت فـوق مؤخرة رأسه ، تبعتها سبّة مألوفة للاذن (اسم من أسماء الاعضاء التناسلية المؤنثة) ، تبعتها لكمة قوية ببوز حذاء سميك في ظهره فوق الكلية مباشرة •

هذه اللكمة ببوز الحذاء لم تكن تحـدث كل مرة بهذه القوة نفسها • وكنت أرى حميدو ينهض بعدهــا ويجري ويدخل الصف • لكن اليوم كان العيد • وسيده سيحضر الحفل بشخصه لا بسندوب ، ومن الطبيعي ان أي خطأ لا يغتفر ، وان كان زلة قدم • لم تكن زلة القدم في ذلك اليوم مجرد زلة قدم ، ولكنها تصبح شيئـــا آخر أشد خطورة • لان الصف يصبح مشوها • وحين يشوه

صف تشوه الصفوف الاخرى بطبيعة الحال • وهذه كارثة •

واختلطت الاشياء أمام عيني حميدو • لم يكن ذلك لقصور في قدرته على الملاحظة ، بسبب ضيق الوقت أيضا • فالوقت في مثل هذا اليوم الهام يصبح ضيقا، ووقع الحياة يصبح سريعا لاهثا ، فلا يمكن لانسان أن يتنفس التنفس الطبيعي ولا بد أن يلهث الجميع •

ولهث حميدو كغيره من البشر فلمحته عين • دائما هناك عين تلمح ، ترقب الاشياء ، وتدس أنفها بتطفل شهواني في حياة الغير أو موتهم • لا تترك الحي يستمتع بحياته ، ولا الميت يستمتع بموته • وضم حميدو ساقيه باستحياء (كان قد اكتسب قدرا من الحياء) ، وأفسح الطريق لموكب العربات • لكن الوقت كان ضيقا الى حد ان ساقه اليسرى لم تجد متسعا من الوقت لتتحرك وظلت ممدودة في الطريق ، حافية ، وأصابع القدم الخمسة منتصبة ، تهتز بحركة مرئية بالعين المجردة •

توقف الموكب مشدوها أمام المشهد الذي لم يحدث من قبل ولا من بعد • لم تذكر كتب التاريخ حادثة من هذا

القبيل • لكن ما يكتب في التاريخ شيء والذي يحدث في الواقع شيء آخر • وما حدث في الواقع كان يستحق أن يدخل التاريخ لجسامته ، لكن التاريخ بطبيعته لا يفتح بابه للحوادث الجسيمة ، خاصة اذا كان بطلها حميدو •

لم يشعر حميدو ببطولته رغم الزحام الذي أصبح حوله • أعداد هائلة من البشر تجمعت في لحظة خاطفة • وامتلأت المساحات الخالية بين العمارات بالاجساد ، وانسدت الابواب والنوافذ بالرؤوس ، وترك الناس مكاتبهم ودواوينهم وأغلقوا حوانيتهم واصطفوا صفوفا متلاصقة يستمتعون بالمشهد • لا أظن ان أحدا تخلف ، صغيرا أو كبيرا ، ذكرا أو أنثى ، من الطبقة العليا أو من الطبقة الدنيا ، فالكل يريد أن يستمتع ، واللذة عامة ، ومشروعة بشرط أن تكون في الخفاء •

وكان حميدو لا يزال في موقعه من الارض ، وعيناه مغمضتان بطبيعة الحال بسبب الموت ، لكنه رأى (ورؤية الميت أشد حدة من رؤية الحي) رجالا كثيرين من حوله • عرف انهم رجال بسبب رؤوسهم الحليقة ، وخراطيمهم المطاطة ، وأزرارهم النحاسية، وآلات القتل الصلبة المتدلية بحذاء أفخاذهم •

حاول أن يفتح فمه ليدافع عن نفسه ، ليحكي قصته منذ ولدته أمه ، لكن سيده كان حاضرا ، وفي حضـــور سيده يصبح الوقت ضيقا ، ولا يكون هناك متسع لاحد ، والحكم بطبيعة الحال لا بد أن يصدر أولا ، ويوقع عليه بالعلم ، وينفذ ، ثم يتسع الوقت بعد ذلك لاي شيء آخر .

وصدر الحكم ضد حميدو فوق صفحة كاملة مـــن صفحات دفتر الاحكام ، وكان القانــــون يقضي بأن يقرأ حميدو المحضر قبل أن يوقع عليـــه بالعلم . ولـــم تكـــن الحروف واضحة بسبب رداءة الخط والسرعة في كتـــابة المحضر ، وأصبح من الصعب على حميدو أن يفك الخط ولم يكن حميدو قد تعلم القراءة .

لكنه استطاع أن يلتقط كلمـــــة أو كلمتين من كل سطر . ودهش لقدرة رجال البوليس على تحويله منجندي مجهول الى بطل ، وأن تكون بطولته خارقة للعادة الى حد ان حركة أصابع قدمه الحافية في وجه سيده أصبحت حركة تمرد . ولم يعد حميدو قادرا على كتمان زهـــوه ، وراح يحرك أصابع قدمه حركة بطيئة مليئة بالكبرياء .

وارتفعت جميع الاكف بالتصفيق . وكان سيده في

الصف الاول • فارتفع كفّاه أيضـا بالتصفيق (حركـة سيده كحركة التاريخ لا يمكن أن تتجـاهل الجماهير) • وحينما تحركت ذراعاه الى أعلى وهو يصفق ، سقط فوق الارض الساندويتش المحشو بلحم الشاة الذي كان يخفيه تحت ابطه ، التقطه على الفور طفل كسيح كان يزحف بين الصفوف بأكياس اللب •

وابتسم حميدو رغم انه لم يدرك شيئا مما يـدور حوله ، فالمشهد لاارادي ولا فضل له فيه ، وغير متقـن أيضا ، يفتقر الى الخبرة ، وتنقصه الثقافـة الضرورية ، والاطلاع على التراث • ولم يكن حميـدو قد قرأ كتب التراث ، وعلى الاخص قصص الحب العذري ، حين كان الحب نظيفا والانسان شريفا ، لم تخلق له بعد أعضـاؤه التناسلية •

لكن آدم اقترف الخطيئة العظمى (كما كانت تحكي له أمه) فاذا بعضو قبيح المنظر ينمو بين فخـذيه • انتقام الهي عادل على حد قول أمه • وهنا خطر له سؤال لم يخطر له من قبل (ولعل سبب ذلك ان جسده كان ميتا فأعطـى نفسه حق التفكير في المقدسات) ، وكان السؤال هـو : كيف اقترف آدم الخطيئة قبل أن يخلق له هذا العضو ؟

وأراد أن يطرد عنه هـذه الفكرة ، فالتفكير في مثل هذه الامور عمل غير أخلاقي ، خاصة في حضور سيده • واختلس حميدو نظرة سريعة بين فخذيه فلم يجد العضو ، ووجد مكانه شقّا صغيرا يشبه الشق الذي كان يراه في جسم حميدة • واعتقد ان في الامر خطأ ما ، وان أجساد الموتى اختلطت بعضها بالبعض ، وعند الفرز النهائي أعطوه جسد امرأة • دائما هناك خطأ في الفرز النهائي • فالموظف الذي يفرز ضعيف البصر بسبب الـدرن الرئوي • وهو الوحيد المكلف بالفرز • (الميزانية لا تسمح بموظف آخر) وعليه أن ينقل الاسماء من كشوف الفرز الابتدائي الـى كشوف الفرز النهـائي • وحروف بعض الاسماء متشابهة، وأسماء الاناث لا يفرقها عن أسمـاء الذكور الا التـاء المربوطة ، أمين يصبح أمينة ، وزهير يصبح زهيرة ، ومفيد يصبح مفيدة ، وحميدو يصبح حميدة • أي انها ليست الا جرة قلم ويصبح الرجل امرأة •

وكان حميدو يحب أن يكون امرأة أحيـانا ، وفي أحيان أخرى يقاوم ذلك مقاومة شديدة • فالمرأة في ذلك الوقت كانت تكلف بأعمال الخدم المهينة ، كأن تمسح حذاء الرجل بعد أن يخرج من دورة المياه أو تناوله كوب مـاء

وهو راقد فوق ظهره يتجشأ بصوت عال (كان مسموحا للرجل فقط أن يتجشأ بصوت عال) ، أو تغسل جوربه النتن ، أو سرواله الاكثر تنانة بسبب البول وعدم توافر الماء والصابون .

ويحاول حميدو تصحيح الامر ، لكن التصحيح لم يكن سهلا بأي حال من الاحوال . اذ عليه دائما أن يثبت انه ليس امرأة ، وفي كل مرة يستدعون الطبيب الشرعي ، الذي ينزع سرواله القذر بتأفف ، وينظر بين فخذيه بكل وقاحة . وأحيانا لا يستوثق تماما من مجرد النظر ، فيمد أصابعه الانيقة ذات الاظافر المشذبة ويفحص العضو المنكمش ،المذعور،ويقيسه من جميع الزوايا بمسطرة مدرجة من البلاستيك ، ويسجل الارقام بقلمه الباركر في دفتر خاص ، ثم يرسلها داخل مظروف مغلق بالشمع الاحمر الى قسم الفيش والتشبيه .

وهذا هو القسم الذي يختلط فيه الحابل بالنابل ، وتختلط فيه بصمات أصابع اليد مع أصابع القدم مع غيرها من أعضاء الجسم . وتتشابك ذيول الارقام مع رؤوسها ، ويسقط منها أجزاء ، وتنطمس أجزاء . والسبب في ذلك رداءة الحبر المغشوش (الغش كان منتشرا في ذلك الوقت

ويمكن لجردل ماء أن يضاف الى زجاجة حبر) .

وظلت حقيقة أمره بهذا الشكل معلقة لبضع سنوات ، لا يقطع أحد فيها برأي ، ولا يستدعيه أحد لاعادة الكشف. وظن حميدو ان الموضوع أصبح منسيا أو كأنه ما كان . وسار في الشارع باطمئنان ، الى حد انه دخل محلا للحلاقة ليحلق لحيته الطويلة . وجلس على الكرسي المريح المتحرك، وهز قدميه باسترخاء ، وشد احدى الجرائد القديمة من فوق المنضدة ، وقلب صفحاتها بغير اهتمام . لكنه ما أن وصل الى الصفحة الاخيرة حتى اتسعت عيناه بالدهشة . كانت صورته منشورة في ذيل الصفحة ضمن صور المشبوهات ، ولم يكن البغاء محرما في ذلك الوقت ، فأمسكوه وأعادوه الى الخدمة .

* *

كانت حميدة في ذلك الوقت قد اهتدت الى مهنة شريفة (الشرف في ذلك الوقت كان معناه الخدمة بالبيوت) . تلقنت أول درس في الخدمة ، وهو أن تنادي الاناث بكلمة « ستي » وتنادي الذكور « سيدي » . وأدركت ان رضا أسيادها عليها يزيد كلما زادت اطراقة رأسها وهي تمر أمامهم ، وأصبحت تثني نصفها الاعلى

فوق النصف الاسفل بصفة دائمة ، فالبيت يحميها من الشارع ، والشارع فيه رجل يتربص بها ولا يكفّ عن مطاردتها .

المطبخ كان حياتها ، وبالذات البقعة المربعة الرطبة أمام الحوض ، ويداها الصغيرتان في الماء الجاري من الصنبور ، ليل نهار ، وصيف شتاء ، وعيناها السوداوان تواجهان الحائط من تحت طبقة الدموع الجافة ، تذيبها من حين الى حين نظرة ملتهبة حادة كالسيف ، تشق الحائط ، وتنفذ الى حجرة الطعام ، حيث مائدة الاكل المستديرة تحوطها تسعة أفواه ، تنفتح وتنغلق على شدقين منتفخين ، يتحرك الفك الاعلى فوق الفك الاسفل ، والاسنان كتروس الطاحونة تصطك وتهرس ، ويتراكم في الحوض صفوف الصحون الفارغة ، تعلوها طبقة دهنية متجمدة ، وتمتلىء صفيحة القمامة حتى الحافة ببقايا الاكل غير المهضوم ، وتنسد ماسورة المرحاض ببقايا الاكل المهضوم .

وفي منتصف الليل ، وبعد أن تمسح أرض المطبخ ، تدسّ في فمها قطعة خبز ، وتشد بأسنانها على قطعة جلد أو قطعة عظم داخلها بقايا نخاع ، ثم تضع جسمها الصغير

بجلبابها المبلل فوق الدكة الخشبية وراء باب المطبخ ، وتترك أصابعها المتورمة المحتقنة تنز" سائلا أصفر بمثل حرارة الدم ، وأذنيها الصغيرتين تتابعان الفحيح الذكري العدواني المنبعث من حجرة النوم يتبعه الانين الانثوي الذليل وقعقعات مفاصل السرير حين يرتج •

أغمضت عينيها ونامت • تخفف جسدها من العبء ، وزال الالم من يديها وقدميها ، وأصبحت تتنفس بهدوء ، هدوء مألوف ، تسربت من خلاله صور مألوفة ، راقدة في قاع الجمجمة ، قاع مظلم ، تتراقص فيه ذؤابة متهالكة من الضوء ، وتبدو الجدران طينية سوداء يلمع فوقها قش التبن الاصفر ، ترتفع الى فتحة مستديرة كالنافذة ، وتهبط الى بساط كالحصيرة ، ترقد على الطرف البعيد أمها ، طرحتها السوداء حول رأسها ، ويدها كالوسادة تحت صدغها ، وفي الطرف الآخر تنام حميدة ، عيناها نصف مغلقتين كعيون الاطفال حين ينامون على قصة عفاريت مخيفة ، وشفتاها نصف منفرجتين عن أسنان صغيرة شفافة نبتت حديثا مكان الاسنان اللبنية، وأنفاسها لها رائحة الاطفال حين يتنفسون كتنفس الزهر المغمض قبل طلوع الفجر وسقوط الندى ، ونهداها مدببان تحت

الجلباب الواسع كبرعمين نبتا منذ لحظات ثم انضغطا فجأة تحت اليد الكبيرة المفلطحة كالبلطة ، التي أصبحت تزحف متسللة تحت الجلباب ، ترفعـــه عن الساقين الصغيرتين والفخذين ، والاشياء تختلط في شيء واحد ، في عصـا واحدة غليظة في يد البائع ، يضرب ، ويضرب على رأسها، وصدرها ، وبين فخذيها ، وهي تصرخ ، لكن صوتهـا لا يخرج ، وتبكي وحدها بالليل بنشيج مكتوم ، وتبتلع دموعها كلها قبل الفجر،وفي الصباح الباكر تبصقها كلها في دورة المياه ، قبل أن يصحو أحد ، وتشد قامتها ، وتنظـر فـي المرآة الى عينيها المغسولتين المرفوعتين في تساؤل •

تساؤل لا أحد يجيب عليه ، رغم ظهرها المحني بعض الشيء ، وأصابعها المتورمة المتقيحة ، وكعبيها المشققين ، وقدميها الحافيتين تصعدان سلم الخدم ، وسلم الخـدم حلزوني وملتو متعرج ، وعند كل ثنية شق مظلم يتسـع لجريمة سرية ، وصفيحة قمامة فاضت بها القمامة ومـلأت الارض بذباب وصراصير صغيرة تزحف مـن تحت عقب الباب الى الشقق الانيقة الفاخرة •

من يرى حميدة وهي صاعدة السلم أو هابطة لا يرى عليها سمات الخدم • ما هي سمـات الخدم ؟ عيناهـا

مغسولتان مرفوعتان الى أعلى . بعد العينين لا شيء يهم .
وكل شيء يسكن ان يكون متقرحا مغلقاعلى الصديد، وقدماها
تغوصان حتى الركبتين في القمامة ، قمامة عضوية لان
أصحابها من أكلة اللحوم ، ورائحة اللحم الميت أشد فسادا
من النبات الميت ، ومع ذلك تدوس حميدة بقدميها على
الرائحة وترفع عينيها للسماء ، وتدرك ما لا يدركه أحد .

ذلك ان قمامة الانسان تزداد بازدياد مكانته في
المجتمع . فالمعدة التي تأكل بفتحتها العلوية اكثر من غيرها تخرج
من فتحتها السفلية بطبيعة الحال اكثر من غيرها . ومعدة
سيدها بغير جدال اكبر معدة ، وقمامته بالطبيعة أضخم
قمامة ، يضعها الخدم في صفائح ، تحملها عربات مصفحة ،
وتجمع على شكل هرم عال في مكان بعيد في الصحراء ،
يتفرج عليه السياح بانبهار .

اهرامات صغيرة من القمامة في ركن كل شارع ، يفد
اليها من حين الى حين جرذان، وكلاب ضالة، وقطط صغيرة
عيونها مستديرة لامعة مرفوعة الى أعلى كعيون الاطفال
وأصابعها متقيحة كأصابع حميدة ، تفتش بسرعة عن قطعة
خبز ، وشيء من غموس لم يتعفن بعد .

وخرجت اصابعها من صفيحة القمامة تلتف حول شيء،فتحت يدها لتراه ، لكن ضوءا مفاجئا سقط فوق كفها . اختفت بسرعة وراء الجدار . لكن الضوء تبعها ، وظلّ طويل ارتسم فوق الارض ، رأسه حليق اصلع،وكتفاه عريضتان،فوق كل كتف،صفّ افقي من خمسة ازرار صفراء تلمع . عرفته على الفور فشهقت بصوت عال ، وفتحت عينيها على صوت سيدها الخشن :حميدة.ورأت الشاة تدخل من الباب يسوقها الجزار. ادركت ان اليوم عيد لذكرى وفاة سيدتها .

التقت عيناها بعيني الشاة . توقفت الشاة . تسمّرت قوائمها الاربع في الارض . ظلت عينا حميدة تحملقان في الدائرتين السوداوين ومن حولهما البياض الصافي ، تكسوه لمعة مفاجئة، تتحرك فوق سطح العينين ، تترقرق ، كدمعة كبيرة ثابتة لا تتبخر ولا تسقط . اتسعت عيناها بالدهشة . تلك الدهشة التي تحدث لانسان يرفع رأسه فجأة فيرى عينيه في مرآة لم تكن موجودة .

شدّ الجزار الشاة من حبل قصير يلتف حول عنقها. تبعته الشاة . لكن عنقها ظلّ ملويا الى الخلف ،

ناحية حميدة . التفّت اصابع الجزار الكبيرة الغليظة حول العنق ، رفسته الشاة بيديها وقدميها الصغيرتين . امتدّت نحوها اربع اياد قوية، شدت ذراعيها وساقيها بعيدا ،واصبحت الشاة ممدودة فوق ظهرها ، وعيناها السوداوان الواسعتان مفتوحتان بالذعر ، تبحثان في العيون حولها عن عيني امها . كانت امها تقف على مسافة غير بعيدة ، عيناها هادئتان ، ثابتتان ، ورموشها ثابتة ، والطرحة السوداء فوق رأسها وكتفيها وصدرها ثابتة لا تتحرك .

ارتعشت عضلة طويلة نحيلة تمتد بامتداد الفخذ النحيل الصغير . امتدت الرعشة حتى اعلى الفخذ ، حتى الزاوية المنفرجة ، كفم طفل مفتوح يلهث . شفتاه ناعمتان ورديتان يشف من تحتهما لون الدم الأحمر ، نديتان بلعاب شفّاف كدموع الاطفال ، واللسان الدقيق بدأ يرتعش ، كرعشة لسان عصفور يذبح .

رفعت عينيها السوداوين المذعورتين مرة اخرى تبحثان في العيون المتزاحمة حولها عن عيني امها . نظرت اليها بعينين غريبتين فيهما نظرة باردة كنصل

السكين • حولت عينيها الى السقف بعيدا عن النصل، لكن السكين كان يقترب منها رويدا رويدا، وبحركة سريعة خاطفة كالبرق شطرها نصفين •

لم تشعر حميدة بالالم • عيناها ظلتا جافتين لم تسقط منهما دمعة واحدة • وتركت جسدها راقدا على الارض التراب ، ومن تحت فخذيها شريط طويل من الدم ، احمر قاتم ، يلمع في الشمس ، زحف اليه النمل وتكاثف فوق ظهره المتجمد المقوس كظهر ثعبان ميت • نفخت النمل فدخل التراب في انفها • عطست فاندفع من فمها قطعة دموع متجمدة في حلقها • مدت يدها الى التراب وردمت النمل • اندفن الدم واصبحت بقعة الارض مرتفعة بعض الشيء كالقبر • داست ببطن قدمها على الجزء البارز من المدفن • لم تعد الارض مستوية كما كانت•داست فوقها بقدميها الاثنتين،وبكل قوتها المستعادة مشت فوقها • وعند ثنية الجدار اطلت برأسها ونظرت خلفها • وحينما لم تجد احدا رفعت جلبابها عن ساقيها ونظرت • لم يكن هناك العضو المألوف وانما شق صغير كالجرح القديم المسدود •

وصل اذنيها الصوت الخشن المألوف : « حميدة »،

فأسدلت بسرعة ثوبها فوق ساقيها • ورفعت الجردل المملوء بالماء وسكبته فوق الشاة ، غسلت عنقها من الدم المتجمد ، وادخلت خراطيم الماء في بلعومها المقطوع فاندفع الماء من فمها وانفها كالنافورة • ضحك الاطفال السبعة في سعادة ، فاليوم هو العيد ،والشاة قدذبحت، والاواني والصحون فوق المائدة أعدّت •

وحلّ موعد الغداء ، وجلس الجميع يأكلون فيما عدا الام ، التي كانت قد ماتت في حجرة النوم ، وحميدة التي كانت لا تزال بجوار الجردل ، تسكب الماء على الجسد الميت ، وتملأ كفها الصغيرة بالشامبوه ،وتدلك الشعر الغزير ، وتدخل اصبعها الصغير في الاذن الكبيرة وتغسلها ، والعين المغمضة ترفع عنها الجفن المسدل وفتحة الانف ، والفم ، والعنق ، والشعر الاسود تحت الابطين ، واسفل البطن •

غسلت الفخذين بعناية ، من تحت ومن فوق ، ومن الوسط • اتسعت عيناها بالدهشة • كان الوسط املس بغير عضو ، مسدودا يعلوه شق طويل كالجرح القديم •

هبطت اصابعها المرتجفة الى الساقين ، ودست

الليفة بين الاصابع الملتصقة وغسلت الحوافر • كانت بقايا طين لا تزال عالقة بالحوافر • طين اسود تتخلله خطوط صفراء كقش التبن الذي يفرش به الزرائب•

سمعت من خارج الباب الصوت الخشن الآمر :

ـ لا تضيعي الوقت في الحوافر ، سنعطيها صدقة للجزار •

شدّت من فوق رف الكتب جريدة الصباح ولفت بها الحوافر • فوق الصفحة الاولى لمحت صورة مليئة بالوجوه المستديرة ، المكتظة باللحم • تعرفت في الوسط عن وجه سيدها • كانوا يجلسون على شكل دائرة • الصحون امامهم ممتلئة مرتفعة كأهرامات مدببة، وسكاكين لامعة ،تتهاوى في انتظام فوق الاهرامات • وتناقصت الاهرامات بسرعة كبيرة حتى اختفت ولم يبق في الصحون الا فتات •

ظنت ان الاهرامات تلاشت • لكنها دققت النظر في الجريدة فوجدت الاهرامات كما كانت مرتفعة وعالية ومدببة ، ولكنها اصبحت في مكان آخر من الصورة ، في موقع [illegible] المائدة والمقاعد ترتفع من اسفل فوق

الفخذين وتعلو حتى المثلث المنفرج في نهايـة الضلوع ، تحت القلب مباشرة •

وانزلقت اصابع حميدة فوق القلب الاملس • ارتجفت يدهـا وهي تقطع الشريان العلوي وتشطر القلب بالسكين لتغسله من الداخل • كثيرا ما فعلت ذلك بقلوب الدجـاج والارانب والاوز ـ ولكـن قلب الشاة كبير الحجم ، لا يزال ساخنا،وعضلاته لا تزال‌تنبض بذبذبة مرتعشة خفية، تسري في اصابعهـا الصغيرة ، وتنتقل الرعشة الى ذراعها وصدرهـا وقلبهـا الذي اصبح يدق بسرعـة اكثر •

سقطت من جوف القلب المشطور جلطـة دم حمراء ، انزلقت فوق رخام الحوض، وسقطت فوق قدمها الصغيرة• انثنت ومدّت يدهـا لترفع الجلطة عن قدمها ، لكـــن عينيهـا ارتطمتـا ببطـن ساقها الطويلة النحيلة ، يجـري فوقهـا شريط طويل رفيع احمر • ظنت انه شريـان تحت الجلد لكنه كـان يتحرك هابطا فـوق‌البشرة • لمستـه بطرف اصبعهـا ، ثم قربته من عينيهـا • كـان الاصبع مبلـلا بدم حقيقـي •

رفعت جذعها الى فوق • فالتقت عيناها المذعورتـان

بعيني امها . عينان خاليتان من الفزع ، باردتان كبركة مــاء آسنة ، صامتان كالقبر ، ثابتتان كعينـــي انسان ميت . اسدلت الجفنين فوق العينين الميتتين واسدلت الغطاء فــوق الرأس والجسد . سمعت صوت امها الخافت من بعيـــد كأنمــا يأتي مـــن تحت الارض : « بلغت يا حميدة » . وناولتهــا سروالا من الدمور الاسمر ، لبسته حميدة تحت الجلباب مرة ولآخر مرة ، فلم يحدث ان خلعتــه بيديها ، وانما هما يدان اخريان ، اصابعهمــا غليظـــة مفلطحة ، ورائحتهمــا غريبة يفوح منهــا التبغ . التبغ تعرف رائحته حميدة . كانت تشتريه من الدكان لابيهــا او اخيها او خالهــا او عمها او اي رجل آخر من الاسرة . وحينمــا تقربه من انفهــا تعطس وتسعل .

وحين تسعل ينتفخ شدقاها كشدقي ابيها ، وتقلـــد صوته الخشن ، وتقف في صحـــن الـــدار كمـــا يقف ، وتلقي برأسهــا الى الوراء في خيلاء كمــا يفعل ، نافخــة شدقيهــا ، واضعــة يدهــا اليمنى في خصرها .

من يراها في تلــك اللحظة كان يظــن انها حميدو . هـــي نفسهــا كانت تظــن انها حميدو . وتدبّ علـــى الارض بقدمين قويتين وتشمّر جلبابها عـــن ساقيهـــا

الرفيعتين الصلبتين ،وتجري نحو الصبيان صائحة انـــــا حميدو • ويلعبون عسكر وحرامية ، او لعبة القطار ، يمسك كل واحـــد منهم بذيل الآخـــر ، وينطلقون يدبون علـــى الارض ويصفرون •

وترتفع الصفارة في الليـــل • ويرتـــج جسد حميدة الصغير وهي واقفـــة قرب القطار • وتتكثف الظلمـــة مـــن خلفهـــا على شكـــل يد كبيرة تندفع بقـــوة في ظهرهـــا وتدفعهـــا الى الامـــام • وتجري حميدة في الظلام، لكن الظلمـــة تنشق بعد لحظـــة عن عشر عيـــون صفراء تلمـــع كالازرار النحاسية ، ونصل ابيض حادّ يتدلى فـــي الخفاء بحذاءالساقين الطويلتين• وتلف طرحتهـــا الســـوداء حول رأسهـــا وكتفيهـــا وصدرهـــا وبطنها ، وتنزلق في ســـواد الليـــل كقطعـــة من سواد الليل • لكن الساقين بنصلهمـــا الحادّ تجريـــان خلفهـــا ، والقـــدمين الكبيرتين تدبّـــان وراءها ، دبيبا لـــه رنين كاصطكاك الحديـــد بالحديد •

* *

حميدو كان لا يزال في الخدمة• في كعب حذائـــــه قطعة من الحديد تدق على الاسفلت في بطء وثقـــل كحافر

بغل مصاب بضربة شمس • الشمس كانت حارقة ، فالمدينة هي القاهرة والوقت هو الظهيرة والشهر اغسطس • ورأس حميدو املس حليق بغير شعرة واحدة • القرص الملتهب الاحمر يلتصق بجلدة الرأس ، وعيناه ثقبان تنفذ منهما النار المتجمعة داخل الجمجمة ، وانفه ايضا له ثقبان يقذفان اللهب واذناه بالمثل ، وفتحة الفم ، وفتحة الشرج ، كل فتحات جسمه تغرز النار الحمراء قطعا متجمدة صغيرة وساخنة كالدم المتجلط •

حملق في القرص الاحمر الدائري • رآه قرصين اثنين احمرين ، داخل كل قرص دائرة سوداء كالنني تلمع ، وحول النني دائرة بيضاء صافية كعيون الاطفال • حملق في العينين وتعرف على اللمعة • صاح : « حميدة » ،وشد الآلة الصلبة من جوار فخذه الى فوق ، وصوبها في النقطة المحددة بالضبط ، في منتصف المسافة بين العينين • وسمع صوت ابيه الخشن : « اضغط » •وضغط على الزناد •

سقط الجسد متضرجا بالدماء ، والعينان مفتوحتان ثابتتان مرفوعتان الى السماء ، والسماء مكتظة بالآلهة وقد جلس كل منهم واضعا ساقا فوق ساق ، والساق

العلوية متدلية من بين السحب (وبذلك تكون مرئية بالعين المجـردة) تهتز بحركة افقيـة منظمة كبندول الساعـة . والشمس كانت قد غابت والليل هبط فعـزفت الموسيقـى النشيد الوطنـي احتفـالا بالنصر ، وارتفعت الاكف بالتصفيق حاملة الجسد الميت الى فوق . لامس انف الميت بطـن قدم احد الآلهـة وشم الرائحة المألوفـة التـي تنبعث من الاقدام التـي لا يغسلهـا اصحابها . اشـاح الميت بانفه بعيدا عـن الآلة ،فارتفع الهتاف وانشق الجراب الاسود عن وسام الاستشهاد في ميدان الشرف .

مد الميت يده الملوثة ببقع سوداء (بسبب جفاف الدم) ليتسلم الوسام . امتدت بسرعـة يد اخرى نظيفـة واظافرهـا مشذبة واخذت الوسام . لوح الميت يده فـي الهـواء في غضب فامتـلأت الظلمـة بكشافات الضـوء الاصفر مستديرة وجاحظة كالازرار النحاسية .

وانفرجت شفتا حميدو في اندهاش ، وسقط جسده الميت بين السيقان الطويلة يتدلى من بينها آلات القتـل الصلبة ، وانفرمت قدمه الحافية تحت الاحذية السميكـة ذات الرقبة . واصبحت الارض كالعجين غاصت بها قدمـه

الثانية ، وساقاه غاصتا الى الركبتين ، ثم الـــى منتصف نخذيه، حتى اعلى الفخذيــن ، الــــى منتصف بطنه • بالتدريج كــان يغوص الى منتصف صــدره • والتفـّت قبضة الارض حول عنقه ، فأرخى رأسه فــــوق الارض ، ووجدهـــا دافئة حانية كصدر امه ، فدفن وجهه بين ثدييها واستطاع ان يضع انفه تحت الثدي الايسر • المكان الامين القديــم المفضل لديه • لكن امه ابعدته بيدها القويـــة كيد ابيه • ورفع رأسه الى فوق فرأى يد ابيه الكبيــرة باصابعها الطويلة تلتف" حول الوسام ، وعيناه الواسعتان السوداوان ذات الشعيرات الدموية تحملقان في عينيه • مد حميدو يده ، لكن يده رغم الزحام ظلت ممدودة في الهواء • حملقت العيــون في اصابعه الملوثـــة بالدم ولم يصافحـــه أحد • (كــان الناس في ذلك الوقت يحتقرون المقتـــول ويحترمون القاتل) • وحميدو لم يكــن قاتلا • هو الذي حدد النقطـــة في منتصف المسافة بين العينين وهو الـــذي ضغط على الزنـــاد وهـــو الذي قتل • لكنه قتل بغيـــر ان يصبح قاتلا • فالقاتل هو صاحب العار الذي لم يلوث يديـــه •

لكن العار لم يكــن عار حميدو ، وكــان عليـــه ان يغسله فحسب (توزيع الاختصاصات كان احدى سمـــات

التقدم ، فالبعض يقوم بالعار والبعض يقوم بعملية الغسل) . يسكب الماء من الجردل ويغسل كل شيء بعناية ، الشعر والرأس والاذرع والارجل ، وثنيات الجلد تحت الحوافر . ويسمع الصوت الآمر من الداخل يقول : « خذ الحوافر فهي نصيبك » . وتستقر الحوافر داخل جريدة من الجرائد اليومية ، وتدخل التاريخ باسم الزكاة ، يحملها حميدو تحت ابطه ، ويسير في الشارع مزهوا بها ، ومن حين الى حين ينظر تحت ابطه ، ويرى الشعر الاسود الغزير ينشق عن وجه ابيض بغير دم ، والعينان الميتتان واسعتان مرفوعتان الى السماء .

وباستطلاع غريزي حملقت عينا حميدو في السماء ، ورأى النجم الوحيد المحترق ، ذيله الطويل الرفيع يشي لامعا فوق السواد كخط من الدم الطازج الذي لم يتجمد بعد . ثم هبت نسمة جففت الدم ، واصبح النجم لونه اسود ، والسماء كتلة واحدة مصمتة بغير مسام على الاطلاق .

وهبط رأس حميدو فوق صدره ، فهبط من عينيه خيط طويل ساخن وانزلق من زاوية فمه يجري تحت لسانه بطعمه الملحي المألوف كماء المخلل .

ضغط فكه العلوي فوق السفلى وابتلع العلقم . لا مهرب لـه من الكراهية . انهـا تغزوه من جميع منافـذ جسده ، وتدخل اليه بطعمها المملح المر من شقوق جلـده وفتحات جسمه ، وتتكوم في جوفه يومـا بعد يوم ، وسنة بعـد سنة ، ويصبح جوفه كقاع زلعـة المش ، فيملأ فمـه بالدخـان الاسود ، ويطـرد الهواء من صدره ، ويبتلـع الدخـان وحـده .

عرفت حميدة رائحة الدخان .التبغ كانت تشتريه من الدكان . لكـن الرائحة هذه المرة مختلفة ، ممتزجة برائحة اخرى لا تعرفهـا . كرائحة دورة المياه بعـد ان يحلـق سيدها ذقنه . تناوله المنشفة باصابعها الصغيرة ، وتـرى عينيه في المرآة ، واسعتين تشعان من البيـاض ومـن السواد ضوءا نحاسيا اصفر .

ويستقر الضوء عليهـا ، رغم انها تختبيء وراء بـاب المطبخ .جسدها الصغير منكمش تحت جلبابهـا المبلل ، وكتفاها غير مستويتين . الكتف اليسرى اعلـى من الكتف اليمنى ، وجذعهـا يميل ناحيـة اليمين ، بسبب سلـة الخضار الثقيلة ، تشد ذراعهـا اليمنى الى أسفل ،وقدمها

اليسرى تلمس الاسفلت الملتهب باطراف الاصابع ،والقدم اليمنى تلمسه بمؤخرة كعبها الحافي • من يراها يظن انها عرجاء • لكـن حميدة لم تكـن عرجاء• كانت جائعـة فحسب • فمدت يدهـا في السلـة وتسللت اصابعهـا الصغيرة الرفيعـة تحت الخضار حتى احست ملمس اللحم الطري • شدت قطعـة ودستهـا بين اسنانهـا قبـل ان يراهـا أحـد •

اسنان حميدة صغيرة بيضاء لكنهـا حادة ، تقطـع اللحـم النيء وتهرس العظم • اسنـان بدائية نبتت فوق فكيهـا منذ قرون ، قبل ان تخترع الشوك والسكاكيـن وغيرهـا من الاجهزة الحديثة (بسبب هذه الاجهزة فقدت اسنان سيدها قوتهـا واصيبت لثتـه بمرض البيوريا) • وعيناهـا ايضـا بدائيتان قويتان ،تريان الاشياء من علـى بعد ، واذناها قادرتـان على التقاط اي صوت مهما بعد • (اذنـا سيدهـا فقدتا ايضا هذه القدرة بسبب اكتشاف المخابرات للاجهزة السمعية الحديثة) •

وسمعت حميدة صوتا، فرفعت عينيها الىفوق• ورأت رأس سيدتهـا يطل من النافذة المزركشة في العمـارة

العالية • وبسبب الارتفاع الشاهق كان رأس سيدتها بحجم رأس الدبوس • لكـــن حميدة رأته بوضوح، ولمحت العضلة السمينة المكتنظة باللحم تتقلص تحـــت فتحتـــي الانف الواسعتين نبت فيهمـــا ومن حولهـــما الشعر • ادركت من اهتزاز الشعر ان سيدتها شمت رائحة اللحم المهروس تحت ضروسهـــا • أنكرت بطبيعة الحال ، لكن قطعة لحم صغيرة كانت لسوء حظهـــا قد انحشرت بيـــن ضرسين ، شدتهـــا مـــن بينهما اصابع سيدتهـــا البضة بالملقاط ، ووضعتهـــا فوق كفهـــا تحت اشعـــة الشمس وارتدت نظارتها الطبيـــة وفحصتهـــا •

لم تضربهـــا سيدتهـــا هذا اليوم • حـــدثت مشادة بين سيدهـــا وسيدتهـــا بعد الغداء الدسم ، انتهت بالاتفاق على مبدأ مساواة المرأة بالرجل في الاشراف على الخدم ، واصبح علـــى سيدهـــا ان يقوم بعمليـــة الضرب هـــذه المـــرة •

رقدت حميدة علـــى ارض المطبخ • سمعت وقـــع القدمين الكبيرتين • اغمضت عينيها وانتظرت • احســـت الاصابع الطويلة ذات الاظافر المشذبة ترفع عنهـــا الجلباب المبلل • تعرّت ساقاها الصغيرتان وفخذها وردفاها حتـــى

منتصف الظهر والبطن • حملقت العينان الصفراوان فـــي البطـــن لامعتين بضوء نحاسي • سقط الضوء الاصفر على البطـــن • بطـــن مشدود ، عضلاته تنقبض بقـــوة ، يهبط الى فخذيـــن بدائيتين ، قادرتين على الحركة في اي اتجاه، وبكل قوة تقاومـــان وترفسان• واندفعت قدمها الصغيرة في بطنه العالي المترهل ذي الثنيات الطولية • امســـــك قدمهـــا في يده الكبيرة • وادرك لاول مرة شكل قـــدم المرأة • فالقدم لها اصابع، خمسة اصابع ينفصل كل اصبع عـــن الآخر • قدم سيدتهـــا لم يكـــن لها اصابع ، اذ ان اصابعها التصقت بعضها بالبعض في كتلة لحمية طريـــــة كخف الجمل •

وزحفت يداه فوق الساقين • واحس حركة العضلات القويـــة تحت كفه، تنقبض وتنبسط • عضلات سيدتهـــا لم تكـــن لها حركة • خامدة ، ساكنة ، تغوص فيها اصابعه بغيـــر مقاومة كمـــا تغوص فـــي كيس من القطن (كـــان ذلك طبيعيا بسبب موت سيدتها السابق في حجرة النوم)•

بهرتـــه حركة اللحم الحي، كخنزير يخرج فجأة مـــن خرابة عاش فيهـــا سنوات على الرمم واطـــراف الجثث • انتفض بالنشوة فسقطت عنـــــه ملابسه ، ولامس جسده

الساخن البلاط البارد المبلل بماء المسح ، تقلصت عضلاتــه المرتخيــة المترهلــة وسرى في عموده الفقري تيار كهربي • دبت الحياة في حواسه الخمس وبدأ انفه المرتعش بفتحتيه الواسعتين يختلس من تحت الحوض رائحة القمامة •جذب بكل قوته شهيقــا عميقا وملأ صدره بالرائحة النتنة •سرت الرائحة في جسده وسرت معهــا ذكرى قديمة منذالطفولة لاول لذة جنسيــة •

لكن حميدة منكمشة في الركن ، ملتصقة بالجــدار ، تسري فوق جسدها رعشة ، وذكرى قديمة لاول ضربة ، وعيناها السوداوان المتسعتان بالذعر ، ثابتتان فوق العصا الغليظــة من الخيزران • كانت العصا مختفية تحت ملابسه او وراءظهره ، ثم في لحظة خاطفــة شدها ورفعهــا فــي وجهها منتصبة صلبة • وبسرعــة تفوق سرعة الضوء صوبها على النقطــة المحددة في منتصف المسافة بيــن عينيهــا • وضغط على الزنــاد•

صرخت حميدة • دوت صرختها في الليل المظلـــم الساكن كصوت الطلقة •تقلبت سيدتهــا في كفنها الحريري من جنب الى جنب • هب ّ بعض الناس (بسبب نومهـــــم الخفيف فحسب) واضيئت الانوار ، وانفتحت النوافــذ

المغلقة والابواب المغلقة ، واشرأبت الاعناق وامتدت .

لكنها لم تصل الى شيء . المطبخ له اربعة جدران وسقف وباب . والباب له قفل حديدي وسلسلة حديدية. وكل شيء عاد الى ما كان عليه . اطفئت الانوار ، وانغلقت النوافذ والابواب .كل الاشياء انغلقت . وعم السكون ، وتجمعت الظلمة فوق بلاط المطبخ ، وتكثف في الركن وراء الباب على شكل جسد صغير عار ، يجري من تحته خيط طويل رفيع من الدم ، وعينان واسعتان دامعتان تبرقان في الظلمة كعيني طفل .

❋ ❋

اللمعة عرفها حميدو من على بعد ، منذ كان طفلا، تجذبه نحوها كضوء النجم . نجم وحيد ساهر في سماء سوداء مصمتة بغير مسام ، وحميدو يسير وحده في الظلام بكعبه فوق الاسفلت ، عيناه مرفوعتان نحو النجم ، ويداه فوق صدره ملوثتان بدم قديم اسود ، وتحت الاظافر سواد كالطين ، ومن حول الاصابع بقع بنية قاتمة بلون التبغ . يمزق سعاله الليل ، ويشق الظلمة بصاقه الابيض ويستقر على الاسفلت بجوار قدميه ،مكورا كقطعة من اللحم الابيض تتخللها شعيرات رفيعة من الدم .

اقتنفوا اثره المدمم فوق الطريق وامسكوه واعادوه الى الخدمة • رفع الطبيب باطراف اصابعه النظيفة ذات الاظافر المشذبة سرواله الدمور • فاحت رائحة الجسد الميت ، فأشاح الطبيب بوجهه بعيدا عنه ، وكتب بقلمه الباركر التشخيص : « لا يصلح الا للخدمة بالبيوت » • واصبح حميدو مراسلا (اللقب القديم لخادم البيت) •

واخذوا منه العهدة : الحذاء الجلدي بالرقبة والكعب الجديد ، البدلة والكتفين المحشوتين بالقطن والقش ، والازرار النحاسية الصفراء ، خمسة ازرار فوق كل كتف ، وعشرة فوق الصدر ، والحزام الجلدي العريض ويتدلى منه الجراب يخفي النصل الحاد كالسكين •

تحسس حميدو جسده في الظلام • وجد الجلباب الواسع القديم ، يتدلى فوق فخذيه كجلاليب النساء، وكتفاه نحيلتان وغير افقيتين، ككفي ميزان غير معدول، الكف اليمنى هابطة الى اسفل تشد معها الذراع والكتف ونصف الرأس الايمن • والسبب معروف • (خدم البيوت كانوا يحملون سلة الخضار باليد اليمنى)• ولان السلة كانت دائما ثقيلة ،مملوءة حتى الحافة بالبطاطس والطماطم والخرشوف ، وفي القاع يرقد الجسد

المذبوح ، والدم الساخـــن الاحمر ينشع من الورق الابيض المصقول ، والقلب لا زال يرجف بحركـــة غير مرئيــــة ، والعينان السوداوان الميتتان مفتوحتان مرفوعتان الى اعلى ، دامعتان ، تلمعان في الظلمة كعيني طفل .

حملق حميدو في عيني الطفل في دهشة . لم تكن لهما لمعـــة عيون الاطفال. كانت لمعتهمـــا نحاسية كعيون الكبار. ركب الطفل فوق ظهره ، الركبتان فوق العنق ، والفخذان حول الظهر وكل ساق على كل جانب ، وكعب الحذاء بحذاء البطـــــن .

هزّ الطفل ساقيه كما يفعل الاطفال حين يركبـــــون الحمير ، سار به حميدو على يديه وركبتيه ، والطفل مـــن فوقه يهتـــز في سعادة ، وفي يده عصا رفيعة من الخيزران. الشمس كانت في منتصف المسافة بين العينيـــن ، والشارع اسفلت احمر ملتهب ، والحصى احمر ملتهب . حصاة حمراء دخلت في الركبة اليمنى فتوقف حميدو ليسعل وعجـــزت عضلات صدره عن ان تنقبض وتطرد الحصاة .

تدلّى رأسه فوق صدره كـــرأس الحمارة المريضة ، فاندفع الحذاء في بطنه مدببا كالسكين . صرخ . لكـــــن عضلات بطنه عجزت عـــن ان تنقبض وتطرد الصرخة . لفّ

يديه حول بطنه ليحميه من الحذاء فانقض عليه الطفل وعضّه في بطـن ساقـه .

دخلت الانياب في لحمه . وصلت العظم حتى النخاع . ضغط فكه العلوي فوق السفلي وابتلـع الالم . تكوّم الالـم في النخاع مدببا صلبا كقطعة زلط . ضحك الطفـل في سعـادة وضرب قطعة الزلط ببوز حذائـه . طـارت الزلطـة في الهواء ثم استقرت في البطن . البطن كـان ساخنـا والصدر ساخن ، مملوء بالدم ، والرأس حليق بغير شعرة واحدة تفصله عن قرص الشمس .

مشت النار في جسده . استسلم لها تمامـا وتركها تغزوه من جميع منافذ جسده ، فاتخذ وضع الحمـارة المريضة وزحف على قدميه وركبته ودخلت الكراهيـة بطعمها الحارق من مسام جلده وتراكمت في القـاع متجمدة وحمراء كقطعة الفحم المتقدة . مدّ يـده ليشد آلـة القتل . ارتطمت اصابعه بفخذيه الميتتين . العضلات مرتخيـة متهدلة تحت الجلباب . اختفى وراء باب المطبـخ ورفع الجلباب . لم يجـد الآلة الصلبة بحـذاء الفخذ ، وارتطمت عيناه بالشق المسدود الاسود كالجـرح القديم ، فسقط رأسه فوق صدره .

ورنّ الصوت الآمر ينادي . حميدة .خرجت حميدة مطرقة من وراء باب المطبخ . جلبابها المبلل يلتصق بجسدها، وعلى جدار بطنها علامة محفورة في الجلد ، على شكل حذاء . وتحت الجدار تنمو الكراهية كالجنين ، تتكور كالعجين، وتعلو يوما بعد يوم ، تنتفخ بالماء وتتخمر وتفوح الرائحة .

التقطت اجهزة الامن الرائحة . دائما هناك اجهزة للامن، لها عيون ترقب ، وانوف تشمّ . كتمت حميدة انفاسها ومسحت بطن يديها بكفيها قبل ان تمد يدها الصغيرة من بعيد بكوب الماء . التفّت اصابع سيدها ذات الاظافر المشذبة حول الكوب البلوري . واشاح بوجهه بعيدا عن الرائحة . لكن الرائحة نفاذة ، وصلت الى انف سيدتها الميت في حجرة النوم ، فانتصبت شعيراته المرتخية واصبحت صلبة مدببة كالدبابيس .

أنكرت حميدة بطبيعة الحال ، لكن جسدها كان الجريمة . اخذوا منها الجسد وتركوا لها الجريمة . كالنحل يمصّ الزهرة ، يرشف الرحيق ، ثم يلقى المصاصة بعيدا بيد قوية . اندفعت اليد في ظهرها كاللكمة . الطريق كان مظلما ، والليل اسود فحملقت في الظلمة.

تعرفت على قبضة امها في ظهرها ، فرفعت عينيهـا الـى عينيهـا ، وكادت تناديها • لكـن امها كانت واقفة بغير حراك • صدرهـا ثابت ، ورأسها ثابت ، وعيناها ثابتتان ورموشهـا ثابتة •

سارت حميدة بجوار التمثال الحجري وتركته خلف ظهرها • • دبّ الصمت في الليـل وادركت انها وحيدة• جلست علىدكـة حجرية بجوار النيل • ملأت صدرهـا بهواء النيل • هواء راكد حزين • دخل الحزن صدرهـا مع الظلمة، فادركت انها ولدت بغير ام ، وان جـدتها لابيهـا كانت جاريـة في بلاط سيدهـا ، وانهـا ماتت مقتولـة بسكين ابيهـا •

تركت جسدها فوق الدكة مرتخيا ، مفتوح المسام ، يغزوه الحزنمن جميع المنافذ • ملأهـا الحزن حتى الثمالة، واعطاها قوة • والحزن لا يعطي دائما • انه نادرا مـا يعطـي • يختص بعطائه نوعا نادرا مـن الناس ، قـادرا على مبادلته العطاء ، وحميدة قادرةعلى ان تعطي الحـزن نفسها كاملـة • تتفرغ له وتعيش عليه •تأكله وتشربـه وتهضمه وتجري عصارته في دمهـا ،وتفرزه امعاؤهـا ، وتفرزه مسام جسدها ، ويسيل فـوق جلدهـا كخيـوط

رقراقة ، تلعقها بلسانها وانفها وتبتلعه مرة اخرى في جوفها ، وتهضمه ثم تعود تفرزه .

من يراها واقفة منتصبة في الليل وحدها يظن انها تمثال رمسيس . ذيل الماء يمشي فوق خديه وعنقه وكتفيه وفخذيه وقدميه . يمشي بهوادة ، دون ان يشعر بحركته ، ويظل هناك فوق الجلد ، ورغم نسمة الليل الجافة لا يتبخر، بل يدخل مسام الجلد ،ويعود من حيث اتى الى منبعه الاصلي في رحم الام .

الحزن هو ولا شيء غيره . الجنين الابدي في رحمها تعيش له ويعيش لها . يدخل او يخرج حيثما تشاء له ان يدخل او يخرج . وحينما تريد له الخروج يصبح طفلها . طفل طبيعي ليس كالاطفال الصناعيين الذين يولدون بشهادة مكتوبة بالحبر ويجري الحبر الاسود حيث الدم الاحمر ، واعضاؤهم التناسلية تبتر والشعر يجتث من فوق الرأس ، وبحذاء كل فخذ لعبة اطفال على شكل مسدس .

طفلها لم يعرف اللعب بالمسدسات او العرائس او اي لعب اخرى ، فاللعب للاطفال وهو ليس طفلا . يولد واقفا على قدميه ، ويجري بين اكوام السباخ ويضحك وحده .

هذه الضحكــة هي التي تميّزه عن الاطفال • فهي ضحكة بغير صوت ، بغير حركة في عضلات الوجه ، لكن عينيــه الصغيرتين تكسوهمــا دمعــة كاللمعة ، تشعّ من تحتهــا نقطــة ضوء ،كنجم وحيد ساهر في سماء بغير قمر •

سارت حميدة في الليــل تبحث عــن طفلها • دارت حول اكوام السباخ • نظرت خلف صفائح القمامة • رأت بجوار الجدار جسدا صغيرا متكورا حول نفسه • عرفته على الفور • مدّت ذراعيهــا في الظلام لتحوطه بصدرها• شقّ الظلمــة ضوء اصفــر وظهرت العيـــن النحاسية • دائما هناك عين مستديرة ترقب بغيــر جفين كعين الثعبان ، والذيل طويل ناعم• لم تخدعها النعومـــة ونظرت خلف الذيل • رأت آلة القتل مختفيــةتتدلى بحــذاء الفخذ • لم يكــن ثعبانا • كان حيــة انثى • لكــن حميدة كانت تدرك ان اي شيء يقتل لا بد ان يكون مذكرا ، فصرخت لطفلها : « احترس منه ، سيقتلك ! » •

دخلت الانياب في بطــن الساق الصغيرة الرفيعــة• ســال الدم كذيل طويل رفيع • بلل اصابعها الصغيرة ، وهبط الى بطــن قدمها • رفعت رأسها الى فوق ، ورأت عيني امهــا الواسعتين السوداوين ثابتتين فــي عينيها ،

تنظران اليهـا في صمت، والطرحـة السوداء تغطـي رأسها وصدرهـا وبطنها . فتحت فمها لتسأل ، لكن الكف الكبيـرة اصبحت فوق فمها ، والانفاس والهواء وحفيف الشجـر كلهـا اصبحت بغير صوت ، تجمدت في كتلة سوداء صماء بغير مسام ، والطرحـة السوداء ذابت فـي الليـل كمـا تذوب قطرة الماء في البحر ..

لكن الساقين تدبان من خلفهـا ، طـويلتين شاهقتين كالموجة العالية ، تتبعهـا في الخضم ، ترصـد مكانـها ، تغوص معهـا الى القاع ، وتطفـو كالجثث فوق السطح، وتتـوه معهـا في وسط البحر ، ثم تعـود تظهـر عنـد الشط ، وترتطم معهـا فوق حافة الصخر ، وتضيع فـي الزبد الابيض ، تتأرجح معها بين المدّ والجزر .

المدّ كـان ضعيفا والجزر أضعف . فالبحر لم يكـن بحرا ، وانمـا نهـر النيل ومياهه راكدة في القاع ،حركتها بطيئة ، ثقيلة ، كقدم نصف مشلولة ، تدوس فـوق الارض وتثبت ولا ترتفع مرة اخرى لكـن حميدو يشدهـا بكل قوته ، بكـل عضلات الساق الرفيعـة المعوجـة ، وترتفـع القدم فوق الارض وتثبت ، ولا تهبط مرةاخرى، لكـن الارض تشدهـا بكل قوتهـا فتسقـط فوقهـا ثقيلـة كقدم من حجر .

الصباح كان مبكرا والشمس لا تزال مائلة ، فارتسم ظله فوق الارض • طويل ورفيع معوج • كقوس قـزح • الرأس حليق ، والكتفان غير مستويتين ، كتف اعلـى من كتف ، وساق اطول من ساق ، كالاعرج ، والاطفال مـن خلفه يضحكون ، ويركبون فوق ظهره •

اصوات الاطفال وصراخهم يترامى اليه من فـوق رأسه ،واقدامهم تدبّ فوق ظهره كعجلات القطار ، كـل واحد يمسك بذيل الاخر ، ويصفرون ، وترتفع الصفارة في الجو فيجري كل منهم ليختفي من « المساكة » وراء كـوم سباخ او في الزريبة او خلف عمود النور •

عمود النور كان طويلا ممتدا في السماء ورأسه يلتصق بالقمر • القمر كان نوره ابيض ، سقط على وجه حميـدة وهي مختفية وراء العمود ، فأصبح وجهها ابيض ،وذراعاها بيضاوين ، وساقاها بيضاوين ، وجسدهـا ابيض املس منزوع الشعر • لكن منابت الشعر ظلت بارزة في قشعريرة، سرت فوق جلدهـا •

امتدّت يدهـا البيضاء ولمست جلدها • جسدهـا وحده هو الذي يطمئنهـا • كل الاشياء الاخرى خـارج جسدهـا غير مطمئنة • اجسام غريبة تكمن في الاركان ،

ووراء الجدران وخلف الابواب ،وفي ثنيات الشوارع المظلمة ، وفي زوايا كل شيء • الزوايا من الخارج تبدو ملساء بريئة ، كأنما لا شيء داخلها ، ولكن حينما ينفرج الضلعان وتتباعد الساقان تظهر آلة القتل بوضوح صلبة ومنتصبة •

تصرخ حميدة • صرختها غريبة ، ليس لها صوت الصرخة المألوف حين يصرخ الانسان فزعا او طلبا للاستغاثة• فلم تكن حميدة تستغيث بأحد • كانت تعرف ان الطريق خال ليس فيه احد ، والنوافذ مغلقة والابواب مغلقة والانوار مطفأة والاصوات معدومة ، وكل شيء معدوم كالصوت •

لم تكن صرخة استغاثة ، ولكنها حادة وطويلة وممتدة ، كأنها ملايين الصرخات اتصلت والتحمت في صرخة واحدة تمتد بامتداد الليل ، وتتلحم بملايين الذرات السوداء التي تصنع الظلمة والصمت •

ولم تكن ايضا صرخة فزع او خوف • لم تكن حميدة تخاف الظلمة او الصمت او حتى الموت • فهي جزء من الظلمة ، وصوتها هو الصمت ، اما الموت فهو يعيش معها • تحمله كالجسد الثاني على جسدها • كشخص

آخر ميت يعيش داخلها • يحتل الفراغ في جوفها ويفرد ذراعيه وساقيه ويتمدد ، وتفوح رائحته من عينيها واذنيها وانفها وفمها وجميع فتحات جسمها • وفي الليل حين تشتد الظلمة وتشتد الوحدة تمتد يدها فتحسه الى جوارها ، ملاصقا لها ، وفي حضنها انفاسه تختلط بانفاسها وحرارته كحرارة جسمها •

وضعت حميدة يدها على ظهرها فشعرت بالامان • جسدها ساخن ناعم املس الزوايا • من يراها من الخلف يظن انها طفل • وحين تستدير ويرى عينيها يدرك انها عجوز ووجوه العجائز كوجوه الاطفال ليس لها جنس • وحين تهبط العين الى بطنها النامي بالجنين الحي يعرف انها امرأة • ويحتار المرء في تحديد عمرها ، فالحقيقة ان حميدة ليس لها عمر • وهذا هو حال الاطفال الذين يولدون رغم انف الموظف الحكومي الذي يحدد تاريخ الولادة • وانهم يعيشون فوق مستوى الحكومة ، وفوق مستوى التاريخ ، وفوق مستوى الزمان والمكان ، لا ينتقلون كالبشر العاديين من مرحلة الطفولة الى الشباب الى الشيخوخة ، ويعيشون رغم انف الموظف الحكومي الذي يحرر تواريخ الوفاة • ينجون من الزمن كالآلهة ،

ويعيشون الى الابد ، حياة واحدة ممتدة بغير مراحل •

يولدون كبارا ثم يصبحون عجائزبغير مرحلة طفولـــة او شباب • ثم يرتدون فجأة من الشيخوخة الى الطفولـــة او من الطفولة الى الشباب • يرتدون في لحظة سريعـــة خاطفـــة اسرع من قدرة العين على الرؤيـــة ، فاذا بالعين عاجزة عـــن اكتشاف حقيقتهم ، ويبدو الواحد منهم طفلا وشابـــا وعجوزا في اللحظـــة نفسها والمكـــان نفسه • واحيانا يسيرون في الطرقات وهم موتى وتكـــاد تزكـــم رائحتهم الانوف ، ومع ذلك تظل العين عاجزة عن التفرقة بينهم وبين الاحياء •

التجاعيد في تلـــك الاحوال لا تهم كثيرا ،لانهـــا لا تبدو للعين تجاعيد وانمـــا تلـــك الخطوط الطبيعية التـــي تظهـــر على وجه الطفل حين يضحك بشدة وبغير صـــوت مسمـــوع •

حميدة كانت لا تزال وراء عمود النور ، وجههـــا متورم مستدير تحت الضوء ، ابيض بلون الدقيق ، تخفي تحت المسحوق التجاعيـــد ، وشفتاهـــا المشققتان (بسبب الجوع) تغطيهـــما قشرة حمراء مدممة ،وصدرها بارز من فتحـــة ثوب مقطوع ، وبطنهـــا بارز ، وكعباهـــا المشققان

بارزان من حذاء كالشبشب بغير كعب ، وشعرهـا غزيـر اسـود كقطعـة من الليـل يغطي بالسـواد رأسهـا وصدرهـا وكل جسدها ، ويطل من تحته عنقهـا الابيض كجذع شجرة تخرج من غابـة نبتت جذورهـا في ارض رطبـة •

من يراهـا يظـن أنهـا امرأة ليل ، مع انهـا لـم تكـن امرأة ولم يكـن الوقت ليلا • كانت الشمس رأسية في منتصف المسافـة بين العينين ، وحميدة تحملق فـي القرص الملتهب الاحمر ،لا يطرف لها جفن ، ولا تختلـج في وجهها عضلة • تنظـر اليه بكل قدرتهـا على الصبر • وتراه بوضوح في مركز الدائرة كالقوس ، طويل ورفيـع ومعوج ، يتحرك امـام عينيهـا بحركته البطيئـة ، كتف اعلى من كتف، وساق اطول من ساق ، كالاعرج • عرفتـه على الفور وكادت تهتف حميـدو • لكنهـا خشيت ان يكتشف مكانها وراء العمود ، ويتعرف على بطنها المنتفخ، ويشـد آلـة القتل •

أطبقت شفتيهـا وكتمت انفاسها • لكنه شم رائحتها (رائحة حميدة قوية نفاذة كرائحة الموتى) فتوقف عـن المسير ، ومدّ يده الطويلة الرفيعة خلف عمود النور • لـم

تمسك يـده شيئا • ناداها بصوت مألوف غير مسمـوع مقلدا صوتها :« حميدة » ، وثنى جذعه فالتـوى نصفـه الاعلى فوق الاسفل مقلدا شكل جسدها • كـان التقليد مصنوعـا باتقان شديد (بسبب تقـدم الصناعـة والتكنولوجيا) الى درجـة ان حميـدة اختلط عليهـا الامر ، وظنت ان الصوت صوتهـا ، والجسد جسدها ، فخرجت من وراء العمود مطمئنة ، وسارت كعادتها مطرقة رأسهـا ، وحينمـا رفعت رأسها الى فوق ارتطمت عيناها بالعينيـن الصفراوين ، فرأتهمـا من هول المفاجآة أربـع عيـون ، وتضاعف العدد في لحظة خاطفة ، وحوطتهـا العيون الصفراء ، عشرا فوق الصدر من الامـام مستديرة ومتراصة في وضع رأسي ،وفوق كل كتف خمس في وضع افقي ، تشـع كـل عين ضوءا نحاسيا اصفر •

ورن الصوت المعدنيفوق الاسفلت كاصطكاكالحديد بالحديد • ما اسمك ؟

قالت بصوت غير مسموع : حميدة •

مشت الموسى الحادة فوق جلدة رأسها وسقط شعرها الناعم الغزير في الجردل ، وهبطت الموسى الحادة الـى جسدها ، ومشت فـوق جلدهـا تجتث الشعر ، وحينما

وصلت الى اسفل البطن عثرت بين الشعر الاسود على البرعم الصغير الابيض،كالعصفور الوليد ، فاجتثته من جذوره ، وتركت مكانه جرحا عميقا في اللحم كالشق المسدود • (سميت هذه العملية الجراحية « بالطهارة » في ذلك الوقت وكان هدفها ان يصبح الانسان « طاهرا » بغير اعضاء جنسية) •

رقدت حميدة فوق الارض الاسمنت ، تحوطها اربعة جدران من الاسمنت ، وذراعاها وساقاها مشدودة مربوطة في حزمة واحدة، واحزام من المعدن الصلب ،يتدلى قفله الحديدي من بين فخذيها (دخل التاريخ باسم حزام العفة) ، وتصطك سلسلته بالارض الاسمنت كلما حركت ساقيها او ذراعيها •

جسدها الناعم الصغير من تحته بركة من الدم ، تدخل في شقوق الارض ، وفوق الجدران دم على شكل اصابع آدمية ، دم اسود قديم ، كالبقع ،ملايين البقع، من كل عمر ومن كل جنس ، اطفال ورجال ونساء وعجائز بيض وسود وصفر وحمر ولكل واحد بقعة مميزة كبصمة اليد •

وضعت حميدة طرف اصبعها الصغير في الشق ،فخرج

مبللا بالدم ، مسحته في الجدار، وطبعت فــوق الاسمنت بصمتها كالختم • (الأميون جميعا امثــال حميدة يختمون على الوثائق الرسمية بهذا الشكل) • وتمتــد الاصــابع السوداء الملوثة بالدم تطبع ختمهــا فوق الوثائق • ملايين الوثائق ومن فوقهــا ملاييــن الاختام ، أختام ســـوداء خطوطهــا متعرجة مشرشرة كارجل الصراصير، او الذباب او الجراد • كثيرون ومنتشرون فوق الارض ،بالليــــل وبالنهار ، فوق الكباري ، فوق السواري ، عنــد ثنية كل شارع ، وراء كل بيت ، خلف كل جدار ، داخل كل شق من شقوق الارض ، رؤوسهم العارية الحليقة تطل فوق السطح، واجسامهم النحيلة مقوسة داخل الشق وبطونهم مجوفـة خالية من الاحشاء الداخلية ، بغير كبد وبغير قلب وبغيــر معدة ، وبغير مصارين والجوف الواسع الخــاوي اصبــح مخزنــا سريــا يعبئون فيه الكراهية (المكــان الوحيــد الذي لا تصل اليه اجهزة الامن في ذلــك الوقت • تقدمت الاجهزة العسكريــة حديثا واخترع في الطب جهاز للاشعة يكشف عن الاجسام الغريبة في جسم الانسان ، ومنظــار الكتروني يوضع في فتحة الشرج ويكشف عــن محتويات التجويف الداخلي) •

سقطت اشعة اكس فوق بطنها المنتفخ • ظهرالتجويف مملوءا حتى الحافــة بالكراهية ،طبقــة فوق طبقة ، فوق طبقة ، ملايين الطبقات الرقيقــة كرقائق من معدن شفاف ، تكونت بعضها فوق بعض في كتلة معدنية مصمتة وصلبة• تحسسها الطبيب باصابعه الناعمة المشذبة الاظافر ثم صرخ: بــارود • فانهالت المعاول تشق" الارض وقلبوا الشقوق رأسا على عقب ، وعثروا على خزائن البارود جميعا (اشاد التاريخ بالانتصار الذي حققته اشعة اكس في عـــــلاج الاورام السرطانية من الجسم) •

لكن السرطان مرض خبيث ، أخبث مــن التاريــخ ، والورم ظل ينمو داخل بطن الارض ، وحينمــا تضع حميدة يدهــا تحتهــا تحسه ساخنا فوق كفها، سخونــة جسمها وتشعــر بالطمأنينة فتقرب اصابعها من انفها ، وتشم الرائحة المألوفة ، كرائحة كوم السباخ ، او صفيحة القمامــة ، او قطعة اللحم الميتة ، تشمها بفتحتي أنفهــا وتملأ بها صدرها، فهــي رائحة حياتهــا •

حرك حميدو رأسه ناحيتهــا • جذبته الرائحـــة المشتركة • كان من الممكــن ان يبتعد ويهرب ولكنه اتجه نحوهــا بحكم المصير المشترك • توقف عند الجثة الميتــة

فاردا قامته الطويلــة راسما ظله على الاسفلت ، طويــلا ورفيعا ومعوجا ، وبحذاء الفخذ يتدلــى النصــل الابيض وعليه بقع سوداء كالدم ــ فتح صدره وملأه بهواء الليــل، ادرك انه ولد بغير ام ، وان جده لابيــه كان جنديا فــي جيش محمد علي ، وانه قتل في السجن .

عرف فجأة ان السجن مصيره ، وكأنه حقيقة قديمــة يعرفهــا كالموت ، فلم يقاوم . ترك جسده مرتخيا في قبضة اليد الحديدية . تدرب في سنوات الاسر ان ارتخاء الجسد يضعف التوتر . مسام الجلد متمدد وتتفتح ويخرج مــــن عينيه واذنيه وانفه وفتحة الشرج . ويصبح كل شيء اقــل ضراوة . الضرب اقل ضراوة ، والنفخ اقل ضراوة والكيّ بالنار (قبل اكتشاف الكهرباء) اقل ضراوة .

ويسقط جسده مرتخيا فوق الارض ، يتمدد بكــل قدرته على التمدد ، وتجري من تحته ذيول رفيعة من الدم، تدخل شقوق الارض وفوق الجدران بقع سوداء كالدم ، كل بقعــة على شكــل خمسة اصابع وكف. ملاييــــن البقــع ، من كل عمر ومن كل جنس . اطفال ورجال ونساء وعجائزبيض وسود وصفر وحمر . ولكل واحــد بقعــة مميــزة خاصــة بــه .

نهض حميدو يستند على الجدار ،وطبع بصمته فوق الاسمنت كالختم (المحكوم عليهم جميعا امثال حميدو يختمون على محاضر البوليس بهذا الشكل) وتمتد الاصابع السوداء الملوثة بالدم تطبع ختمها فوق المحاضر • ملايين المحاضر بعضها فوق البعض ، متكدسة كأجساد الموتى في يوم الحشر (قبل اكتشاف الاتوبيس) اجساد مرصوصة في خطوط افقية مصفوفة في وضع عكسي ، الرأس بجوار المؤخرة ، والمؤخرة بجوار الرأس ، متراصة في كل شبر من الارض او السقف ، متلاصقة بغير مسافات ولا مساحات خالية تسمح بمرور الهواء او امتداد الساق او الذراع •

اغمض حميدو عينيه وفتح فمه وتأوه• تبعه الاخرون بصوت مماثل • ارتفعت ملايين الاصوات في الفضاء المظلم وصنعت صمت الليل • ضغط الصمت بكثافته وثقله على أذنيه ففتح عينيه ورأى في وجهه القدمين المشققتين • عرفهما على الفور وهمس بصوت مقلد صوتها : حميدة • لكنها لم ترد ، كانت ميتة ، جسدها ممدود فوق الارض ، ووجهها ناحية السماء ، يسقط عليه ضوء القمر الابيض ، فيبدو مستديرا متورما كالمثانة المنتفخة •

فتحت فمها وتأوهت (بسبب ضغط البول) • ارتفعت

ملايين التأوهـــات في الفجر وصنعت النشيج الوطني •
(كانوا يسمونه النشيد الوطني) •

سمع حميدو النشيد فأدرك ان النهـار طلع • جرّ ساقيه من تحت الحزام الحديدي وسار الى دورة المياه • المكان الوحيد من العالم حيث يشعر بالتفاؤل ، ويتبـادل من وراء الحائط بضع كلمات ، وينبعث من نصفه الاسفل خيط البول ، رفيعا ومقوسا كقامته ، ونفـاذ الرائحـة كرائحته ، فيشعر بمرح مفاجىء ، ويرمق من حوله خيوط الماء الصفر تلمع في الضوء كأقواس النصر فيضحك مقهقها •

ترتفع القهقهات من دورة الميـاه ، قهقهات عالية ، ملاييـن القهقهات، فالاعداد تتزايد يوما بعد يوم ، وكـل الاجهزة يمكن أن تتعطل فـي ذلك الوقت الا الاجهزة التناسلية والاجهزة اللاسلكية بطبيعة الحال •

ويسري الصوت كما يسري أي صوت وبالسرعـة نفسها (عن طريق أحد الاجهزة) ، ويدخل الاذنين الكبيرتين كالحصاة المدببة ، ويرتفع الاصبـع النظيف ذو الظفـر المشذب ويسلك الاذنيـن ، وتسقط الحصاة المدببة فـي كفه السمينة المكتظة باللحم ، فيرفع عينيه في عيني الموظف المختص ويقول : أيضحكون ؟••

ويخفض الموظف عينيه كعادة الموظفين في حضرة سيده : لا يا مولاي ، يبولون فحسب .

حميدو كان لا يزال واقفا في دورة المياه ، وخيط الماء لم ينقطع بعد ، حين رأى الموظف مقبلا يفتش ، شعر بالخوف . والخوف كالموت كائن عضوي من لحم ودم ، سحب الدم من رأسه وذراعيه وساقيه وأحشائه الداخلية ، وتجمع في نقطة واحدة أسفل البطن ، انتفخت وتمددت كالمثانة . وكان الموظف لا زال واقفا أمامه ، فاتحا ساقيه في غطرسة ، شاخصا في عينيه بشجاعة الموظفين في غيبة سيده ، وفمه مفتوح ، ولثته متقرحة مصابة بالبيوريا (كلثة سيده) .

وشعر بألم حاد أسفل بطنه . وتلفت حوله . كانوا يضيقون الخناق عليه ، والاجساد تضغط عليه من كل جانب ، بغير مسافة أو مساحة خالية . ولم يجد مكانا خاليا سوى الفم المفتوح المتقرح ، فصوّب نحوه شريط الماء ، وأفرغ الخوف كله من جسده .

فتح حميدو عينيه ، وأحسّ من تحته البركة ، دافئة كجسده ، نفاذة الرائحة كحياته . أدرك انه لا زال حيا ،

وتفتحت شهيته للاكـــل . مدّ يده في الصحن فانتفضت ملايين الحشرات السوداء الصغيرة وهاجت من حوله في مرح ، بعضها يطير ، وبعضها يجري ، وبعضهـا يزحف . التصق بعضها بالسقف ووقف عـــلى الجدران ، ودخـل آخرون الشقوق وبقيت واحدة في كفه .

نظر بين ساقيها ورأى الجرح القديم المسدود فأدرك انها أنثى ، وانها ميتة . ضغط عليها بالكف الاخرى فماتت مرة أخرى . طرقع أصابعها الميتة فالتقط جهاز التسجيـل صوت الطرقعة . (كان هناك جهـــاز للتسجيل من آخر طراز بحجم الحمصة ثبت في عضو من جسمه) . طرقـع أصابع قدمه اليمنى بكبرياء وزهو . حركته في التاريخ لها أهمية . والاهمية هي سبب ذلك الذعر الــــذي يراه في عيون موظفي الدولـــة ، حين تصوّب نحوهم العدسات المفتوحة ، فاذا بأي حركة تصدر عنهم تدخل التاريخ على الفور ، وان كانت مجرد طرقعـــة اصبع (بسبب تيبس المفاصل بعد الاربعين) ، أو اصبع يرتفـــع ليهش ذبابة وقفت على الانف .

هزّ أصابع قدمه بحركة مبتكرة . انه رغم كل شيء يحب الاصالة ويكره التقليد . كم سجل التاريخ ركاما من

الحركات المقلدة غير الاصلية كحركات القرود ، ووجـوه وأصابع متشابهة مكررة كلها تقليد في تقليد • ركام مكدس بعضه فوق البعض ككوم السباخ • كل يوم ترقد البقرة ، وفي الفجر تدخل أمه تلمّ الروث ، ثم تجمعه تحت الشمس بعضه فوق البعض ، وحين يجف في اليوم التالي يصبـح راسخا في التاريخ •

ظهر العسل الاسود متجمدا في قاع الصحن ، واستقر في قاع معدته كقطعـة من القطران • قضم قطعـة بصل وأصلح بها طعم العلقم • أشعل قطعـة تبغ وملأ بالدخان صدره وبطنه فشعر بما يشبه الشبع ، وتجشأ بصوت عال ينمّ عن الثقة بالنفس • (الذكـور فقط هم الذين كان يحدث لهم ذلك) •

سمعت حميدة الصوت • تعرفت فيه عـلى رائحة التبغ • كانت تشتريه من الدكان لابيها أو أخيها أو خالها أو عمها أو أي رجل من الاسرة • ويناولهـا البائع قطعة حلوى ، تضعها في فمها ، وتخفيها تحت لسانهـا ، وحين يطالبها بالقرش تفتح يدها فلا تجد شيئا ، وتفتح عينيهـا فتجد المصباح كذؤابة الضوء ، تحتضر ثم تمـوت بنفخة

هواء واحـدة • وتسدّ الظلمـــة الباب كالجسد الطويل الضخم الا من ثقبين مستديرين في أعلى الرأس ينفذ منهما ضوء أحمر بلون الشفق •

همست بصوت خائف غير مسموع : « من أنت ؟ » •
رد بصوت كصوتها خائف وغير مسموع : « حميدو » •
أغمضت عينيها حتى لا يتعرف عليهمـــا ، تركت ذراعيــه الطويلتين تحوطانها ، وانفاســه الساخنة تدفئهـا • كــان الفصل شتاء وأذناها الصغيرتان الناعمتان كقطعتين مــن الثلـــج •

همس في أذنيها بنفســه الساخن : من أنت ؟ تركت أذنها تحت فمه ولم ترد • تظاهرت بالنوم وخبأت رأسهــا في شعر صدره الغزير • وحينما أحست الاصابع الكبيرة ترفع عنها الثوب كتمت أنفاسها ، ولم يعد صدرها يعــلو أو يهبط ، وأصبحت ميتة •

لكن الشمس في الصباح سقطت فوق عينيها • ورأت الجسد الطويل الى جوارها ، طويــلا ورفيعــا ومعوجا • كتفاه غير مستويتين تشبهان كتفيها ، وأصابع يديه متورمة متقرحة من ماء الغسل كأصابع يديهـــا ، وأظافره سوداء

كأظافرها • عرفت على الفور انه جسدها فاحتضنته بكل قوتها ، وضغطت صدرها على صدره ، فأحست المحفظة الجلدية تحت ثديها الايسر • كانت جائعة فمدت يديها وسحبت المحفظة بسرعة قبل أن يراها أحد •

اختبأت وراء جدار وفتحت المحفظة • رأت صورتها بالطرحة السوداء تشبه أمها ليلة زفافها ، ووصية بخط أبيها يذكره بغسل العار ، وأربعة جنيهات وبريزة (البريزة هي العشرة قروش في ذلك الوقت) •

أكلت بالبريزة ، واشترت بجنيهين ميني فستان (وهو الفستان المصغر الذي كان شائعا في ذلك الوقت بين الزوجات المحصنات حتى لا يظهر من أجسادهن المحرمة الا الاذرع والاكتف والصدور والافخاذ فحسب) • واشترت بالجنيهين الباقيين حذاء له كعب عال رفيع وليس له وجه • (اختفاء وجوه الاحذية في ذلك الوقت كان هدفه الكشف عن طلاء الاصابع الاحمر بلون الدم ، أما الكعب فكان موجودا ليخفي تشقق أقدام النساء بسبب الخدمة بالبيوت) •

وسارت حميدة في الشارع تتأرجح على الكعب

العالي ، وذراعاها عاريتان ، وفخذاها عاريتان ، وعنقها عار حتى منتصف ثدييها . أصبحت تشبــــه سيدتها ، ومرت بحذاء الشاويش (الاسم الشائع للشرطي في ذلك الوقت) فلم يقبض عليها،وتركها تمر امامه مطرقا رأسه وخافضــا عينيه ناحية الارض (كان اسم هذه الحركة « غض البصر » أمام المحصنات من النساء ، وقد تدرب عليهــا في سنوات الدراســة) .

رفعت رأسها الى فوق ، وسارت بخطوات متأرجحة مهتزة . اهتزت كتفاها العاريتان وظهرت الكتف اليسرى أعلى من الكتف اليمنى . والثدي الايسر أعلى من الثدي الايمن (كان ذلك بسبب المحفظة المنتفخة المختفيــة تحت الثدي الايسر) . واهتز الردفان أيضا ، واحدهمــا أعلى من الآخر .

ابتعدت عن الشرطي بضع خطوات وتحسست المحفظة. جلدها ناعم كاللعاب يجري فوق أصابع اليد بعد قضمــه فطيرا بالسكر ، وتيار من الدم الساخن يسري من ثديهــا الايسر الى بطنها وفخذيها وقدميها ، ثم يصعد الى رأسها وأذنيها وأنفها ، ويهبط مرة أخرى الى قلبها ، في دورتــه

العادية المتكررة ، باعثا في الخلايا الساكنة حركة جديـدة لهـا لذة .

حركت فكها العلوي فـوق السفلي ومضغت اللذة . ذابت اللذة في اللعاب فابتلعتهمـا . اختلطت اللذة بالدم ودارت معه من الرأس الى القدمين ومن القدمين الـى الرأس . وبدأ رأسها يدور ، فأسندت ظهرها الى عمـود نور ، وأسدلت جفنيها فوق عينيها ، فأصبح الشارع مظلما، والسماء سوداء بغير قمر . سقط الضوء المستدير الازرق فوق وجهها . عرفته على الفور (كان سيدها يطلي فوانيس عربته بطلاء أزرق حتى لا يراه أحد أثناء جولاته الليلية) . فتح بابه وهبط من العربة ، ثم استدار حولها وفتح لهـا الباب . انتظر حتى دخلت وجلست ، فأغلق الباب ، ثـم استدار مرة أخرى حول العربة حتى وصل الى بابه ، ففتحه ثم جلس وأغلق الباب . (كان سيدها قد تدرب على هذه الحركة الدائرية في كلية الآداب) .

انغرز كعبها العالي الرفيـع في بساط سميك طري كالعجين فانخلع حذاؤها . وظهر كعباها المشققان فأخفتهما تحت الملاءة الحريرية . كان جسدها قد أصبح في وضـع

أفقي فوق شيء طري ، اكثر طراوة من العجين ، فارتخى ردفاها المشدودا العضلات (بسبب طول الوقوف وراء العمود) ، وبدأ جسدها يغوص في العجين ، القدمان ، ثم الساقان ، ثم الفخذان ، ثم الصدر فالعنق • ولم يبق الا الرأس بارزا فوق السطح •

بدأ الرأس يغوص بالتدريج ، الذقن ، ثم الفم ، ثم الانف • انعدم الهواء ، فاتسعت عيناها السوداوان وملأهما الرعب • والرعب كائن عضوي من لحم ودم ، تجسد أمامها على شكل مخلوق غريب مشوه • رأسه انسان وجسده قرد • رأسه عار حليق أملس ، وصدره غابة شعر واليتاه كرأسه عاريتان ملساوان تشف بشرتهما عن لون الدم الاحمر كبشرة وجهه ، وشفتاه حمراوان ، منفرجتان ، يظهر بينهما لسانه الطويل الحاد كنصل أبيض له حافة معدنية صلبة ، وفي نهايته ثقب مظلم يكمن فيه الموت •

صرخت صرختها المكتومة غير المسموعة ، وأسدلت جفنيها فوق الرعب زحف الرعب الى حلقها (خلال القناة الدمعية التي تصل العين بالانف) وتكوّر كالغصة • شدت عضلات حلقها وبصقته بكل قوتها فانبعثت من فمها وأنفها وأذنيها خيوط رفيعة كالنافورة •

ضحك سيدها في سعادة الاطفال ، فقفز خده الممتلىء باللحم وسدّ عينيه تماما • أدركت انه سينام بعد لحظة • (كان السلام الملكي قد دق معلنا انتهاء الحفل الترفيهي) • وحينما ارتفع شخيره في الفضاء فتحت الازرار الذهبية فوق صدره ورفعت المحفظة الجلدية الثقيلة الضاغطة على قلبه •

فتحت الباب بهدوء ، وسارت على مهل بخطوات واثقة • فتحت باب سيارتها بمفتاح فضي لامع كمفتاح سيدتها • انزلقت العربة فوق الاسفلت الناعم كقارب رشيق يسبح • مرت بحذاء الشرطي الواقف على الرصيف منتصبا كعمود النور ، فاهتز (كأنما بمس كهربي) وارتفعت سبابة يده اليمنى ولامست طرف أذنه اليسرى (حركة مقدسة في ذلك الوقت ترمز الى حب الوطن) •

أطلت من نافذة السيارة برأسها • سقط ضوء القمر على وجهها • كان الطريق خاليا الا من أعمدة النور ، منتصبة على جانبي الطريق في وضع رأسي ، ومن ناحية اليمين ترتفع الاذرع عاليا ، ومن ناحية اليسار رشق في كل اذن اصبعا •

تعرفت على البقع السوداء فـوق الاصبع ، فهمست بصوتها الخافت : حميدو ! لم يسمع حميدو شيئا ، وظـل واقفا منتصبا ، رأسه مرفوع نحو السماء ، واصبعه الاسود في أذنه (جميع المسافرين الى الخارج كانوا يرون فيمدخل كل بلد هذا النصب التذكاري للجندي المجهول) .

مدت يدها وأمسكت يـده . أصابعه كأصابعهـا والخطوط فوق كفه تشبه خطوطها . أشفقت عليـه بحكم المصير المشترك ، وحاولت أن تثني ذراعـه المرفوعة في اعياء . لكن الذراع الحجرية أبت الانثناء وظلت مرفوعـة في الهواء . رفعت عينيها الى فوق ورأت العينين الواسعتين السوداوين تلمعان بدمعة حقيقية كدمعة الاطفال . سقطت الدمعة على خدها ساخنة ، وزحفت من زاويـة فمها مرة كالعلقم تحت لسانها ، فابتلعتها . سقطت واحدة أخـرى ساخنة على خدها ، وزحفت الى زاوية أنفها مرة كالعلقـم فابتلعتها . وبدأ الحزن يغزو جسدها من جميع المسـام والفتحات ، يدخـل أنفها وفمها وأذنيها كمسحوق ناعم ، مدبب الذرات ، كقطع الزجاج المبشور ، تمزق الاغشيـة الرقيقة التي تخلف الانف والفم والشعب الهوائية ، فتسعل بشدة ، وينز من صدرها سـائل أبيض يجري في قناة

طويلة ضيقة تصل القلب بالحلق بالانف بالاذنين بالعينين ، فاذا بها تمخط لعابا من عينيها ، وتبصق دموعا من أنفهـا وفمها وأذنيها ، وكلها بيضاء تتخللها شعيرات من دم .

رفعت وجهها الى ضوء القمر . أصبح بياضه شديدا خاليا من شعيرات الـدم ، وملامحه غريبـة تشد البصر لتناقضها الشديد . فالذقن صغيرة مستديرة وناعمة كذقن طفل ، والجبهة بارزة خشنة مجعدة كجبـاه العجائز . الشفتان عذراوان منفرجتان عن حرمان لا يرتوي كشفـاه الزوجات العفيفات ، والخدان بـارزان في شراهة حـادة لا تشبع كخدود الازواج المحترمين ، والانف مستقيم عال في كبرياء ، سفيه كسفاهـة المجرمين والخارجين عـلى القانون ، والاذنان صغيرتان مستكينتان بغير حركة كآذان موظفي الحكومة ، والعينان سوداوان واسعتان ، فيهمـا نظرة بدائية وقحة مرفوعة الى أعلى وثابتة ، لا تغض البصر كعيون النساء المحتشمات المطرقات الى الارض حياء مـن أفكارهن الوقحة .

ملامح غريبـة شديدة التناقض ، والتناقض لشدة الغربة كان منسجما مع الملامح على نحو متسق مألوف ،

يبلغ من شدة انسجامه واتساقه درجـــة من الجاذبية غير المألوفة ، تشد اليها البصر شدا ، كأنما ليس لها وجه واحد وانما وجهان أو ثلاثة أو أربعة ، أو ان وجهها ليس وجها وانما شيء آخر .

شيء آخر مثيـر للحيرة والارتبـاك ، والقلق بـل والغضب . فالانسان يغضب بطبيعة الحال حين ينظـر في وجه انسان آخر فلا يرى نفسه وانما عورته ، ويشتـد غضبه بطبيعة الحال أيضا اذا كانت عورته غير مألوفة في شكلها أو غير طبيعية ، والطبيعي أن يكون للعورة شكل مخجل مخل بالشرف ، وأن يكـون لها رائحـة نجاسة (كرائحة العرق أو البول أو غيرها من افرازات الجسـد السامة) ، ولكن أن تكون الرائحة طيبة معطرة فهذا هو الغريب ، لان الجسد في تلك الحالة يحتفظ في جوفـه بالعرق والسموم ، فيصبح الجوف عفنا تفوح منه رائحة النجاسة ، أما الوجه فيظل نظيفا أبيض تكسـوه ملامح النبل وعراقة الاصل (وغيرهما من السمات الرفيعة التـي تظهر بوضوح على وجوه النبلاء أمثال سيدها) .

وتحرك وجه سيدها نحوهـا وهي واقفـة في ضوء

القمر • ظلت عيناها في عينيه سوداوين واسعتين مفتوحتين لا تغضان البصر • أراد أن يبصق في وجهها من شدة الغضب • لكنه كان قد تعود أن يكظم الغضب ، فأصبح الغضب لا يحرك في وجهه الا عضلة صغيرة عند زاوية أنفه ، تتقلص فجأة ، وتشد شفتيه في انفراجة ، تبدو للعين المجردة كالابتسامة •

لم يكن لديها موعد آخر فصعدت الى السيارة ، مرّت السيارة من أمام بيته الرئيسي في الزمالك • رأت سيدتها تطل من النافذة العالية المزركشة • كان رأسها بحجم الدبوس (بسبب الارتفاع الشاهق) ، لكنه رآها فأخفى وجهه بيده اليمنى وداس على البنزين بقدمه اليسرى فانطلقت السيارة ولم يره أحد • سار على مهل في شارع النيل واجتاز الكوبري ، فأصبح على مشارف حي بولاق ، حيث بيته الفرعي (كان لكل زوج محترم في ذلك الوقت بيت فرعي الى جانب البيت الرئيسي ، ويزيد عدد بيوته الفرعية كلما زادت درجته) •

وتجرد من ملابسه بسرعة (كعادة المشغولين بأمور هامة) ، ثم رفع قدمه ووضعها على طرف السرير ، وبقيت

انقدم الثانية فوق الارض (كان قد تدرب عـلى الوقوف على ساق واحدة في سنوات الخدمة العامة) . تصـادف في هذه اللحظة أن حركت رأسها ناحيتـــه فلم تجد آلة القتل وانما الجرح القديم المسدود . كان يمكن أن تتسع عيناها السوداوان في دهشة . لكن شيئا لم يكن يدهشها، فحركت رأسها ناحية الحـائط بغير اكتراث . رأت فـوق الحائط سيدتها بملابسها العسكرية داخل اطـار مذهب ، وعيناها شاخصتان فوق الكتلة العارية ، تتابعان حركتهـا بنظرة الحكام الوقورة المتجهمة ، وتلتقطــان الصور من جميع الزوايا (ملحوظة : حفظت هذه الصور في أرشيف المخابرات المركزية) .

وأصبح وجهها معروفا ، حين تطلّ من نافذة العربة تلتوي ناحيتها الاعناق حانية الرؤوس بطبيعـــة الحال . وأصبح وجهها فوق الجدران ، في ناصية كل شارع ، حيث كانت تقف تنتظر ، وأحيانا حين يطول بها الانتظار ترفـع رأسها الى فوق ، وترى صورتها معلقة ، شفتاها منفرجتان في ابتسامة عريضة ، ومن بينهما (عند ركن الفم) ، خيط طويل أبيض من اللعاب الدافىء يجري صاعدا الى زاويـة الانف ثم يدخل في الركن بين الانف والعين .

وتمسح البلولة من فوق وجهها بكفها ، ثم تمسح كفها في الجدار ، وترتسم على الجدار الكف وخمسة أصابع آدمية ، تهب عليها نسمة الليل ، وتطلع عليها الشمس فتجف وتصبح بقعا سوداء بلون الدم القديم •

سقطت أشعة الشمس فوق عيني حميدو وهو نائم في وضع رأسي بجوار الجدار • فتح عينيه ورأى الكف والاصابع السوداء الممدودة • أصابعها كأصابعه والخطوط فوق كفها تشبه خطوطه • انفرجت شفتاه هاتفا : حميدة ! وشد آلة القتل بحذاء فخذه ، لكن رأى المفتاح الفضي اللامع يتدلى من بين أصابعها ، فأدرك انها سيدته ، وأخفى الآلة في جيبه في لمح البصر ، وتركها تتدلى مرتخية وراء فخذه ، ووقف في مكانه منتصبا ، عضلات ظهره مشدودة، وذراعه اليمنى مرفوعة ، وجفناه مرتخيان متدليان فوق عينيه كالحجاب •

حين ابتعد صوت العربة رفع جفنيه ، ورأى مؤخرة العربة المدبية تشق الظلمة ، ثم ابتلعتها الظلمة • ترك عضلات ظهره ترتخي ، وذراعه تهبط ، وشعر براحة ، فملأ صدره بهواء الليل ، وحاول أن يتذكر وجهه وهو

طفل ، وشكل ملامحه حين كان يبتسم أو يضحك ، فلم يتذكر شيئا . لم تكن هناك طفولة ولا ابتسامة ولا ضحكة.

سمع وقع قدميه الثقيلتين فوق الارض : يمين . شمال . يمين . شمال . لب . دب . لب . دب . الضربات البطيئة المنتظمة ، تتخللها مسافات من الصمت الاسود بلون الموت . سعل وبصق على الارض البصاق المدمم . سقطت الخيزرانة الرفيعة على ظهره ولسعته ، فأدرك انه عار وانه لم يمت بعد . فقد تفاؤله وبصق مرة أخرى . سمع الصوت الآمر المألوف فشدّ الآلة من الجراب الاسود . نظر بعين واحدة في الثقب ، وحدد النقطة في منتصف المسافة بين العينين . صاح الصوت الخشن : اضرب . ضرب .

سقط الجسد الطويل المعوج ، وفي منتصف جبهته البارز ثقب يجري منه خيط طويل من الدم ، يخترق العينين والخدين والانف والشفتين ويدور حول الذقن الصغيرة المستديرة كذقن الطفل .

لم يكن طفلا واحدا . وانما آلاف الاطفال أو ملايين ، أجسادهم سقطت فوق الاسفلت وفوق وجه كل منهم خيط طويل من الدم يجري من العينين الى الانف

والفم وبالعكس . والشمس سقطت فوق الاسفلت ، والسماء أصبحت زرقاء صافية وظهر فيها بوضوح الآلهة المكدسون الجالسون صفوفا ، ساقا فوق ساق ، يدخنون النرجيلة .

مدّ حميدو ساقه فارتطمت بساق أخرى . مدّ ذراعه فارتطمت بذراع أخرى . أصبح غارقا في بحر من الاجسام الميتة . بدأ يسبح بذراعيه وساقيه في الخضمّ الكبير . توقف لحظة ليلتقط نفسه ، وتلفت حوله ليعرف أين هو أو من الذي أتى به الى هنا . لم يتذكر شيئا سوى انه كان طفلا ، وان قبضة يد قوية اندفعت في ظهره ، وقذفت به في البحر . رأى اليد مرسومة فوق الجدار . الكف الكبيرة ككف أبيه ، والاصابع متورمة مشققة كأصابع أمه . انفرجت شفتاه وهتف : أمي ! نظرت اليه أمه بعينيها السوداوين ، والطرحة السوداء على رأسها وعنقها وكتفيها وبطنها .

كانت واقفة بقامتها الطويلة لا تتحرك وصدرها العالي ثابت بحذاء رأسه . وضع رأسه على صدرها ، ودفن أنفه بين ثدييها . أبعدته أمه بيدها القوية ، فرفع رأسه

اليها ، ورأى عيني أبيه ألواسعتين تلمع فوق بياضهمـــا الكبير الشعيرات الحمراء كالثعابين الرفيعة ، وسمع صوته الغليظ : العار لا يغسله الا الدم .

اقترب من أبيه ، وعيناه ثابتتان في عينيه لا ترمشان . ارتجفت الشعيرات الحمراء فوق البياض الكبير (الانسان يفزع اذا ما رأى عينا مفتوحة تنظر اليه دون أن ترمش . معنى ذلك انها تفحصه جيدا لتراه على حقيقته) .

تراجع أبوه خطوة الى الوراء فسقط ضوء المصباح على وجهه . رفع كفه الكبيرة وأخفى وجهه ، لكن الضوء كان يكشف جسده الطويل الضخـــم وهو واقف يسد الباب . نفخ ذؤابة الضوء فانطفأت ، وأصبحت الظلمــة شديدة ، الارض كالجدار كالسقف . فتعثرت قدمه الكبيرة الحافية في العتبة المرتفعة بعض الشيء . لكنه استعـــاد توازنه ، ووثب كالفهد على أطراف أصابعه المطاطية ، ثـم سار على مهل وحذر متخطيا شيئا يشبه البلغة (الحـذاء بلغة أهل الريف) .

صرخ حميدو بصوت الاطفال ، لكن جسده لم يكن جسد طفل . وامتدت يده في جيبه الطـويل كالجراب ،

وشدّ الآلة المعدنية الصلبة . حدد النقطـــة في منتصف المسافة بين الدائرتين البيضاوين تلمـــع فوقهما الخيوط الحمراء . كتم نفسه وأغمض عينيه وضغط على الزناد .

فتح عينيه ورأى الجسد الطويل المعوج ممددا تحت الشمس . عيناه الواسعتان مرفوعتان الى أعلى وذراعـه اليمنى متدلية الى جواره تقبض على شيء . فتح حميدو أصابعه ، فسقط القرش في كفه . أغلق عليه يده ، وذهب الى الدكان ليشتري تبغا . اشترى قطعـــة من الحلوى ووضعها في فمه . استدار ليعـــود ، لكن البائع طالبـه بالقرش . فتح يده المغلقة فلم يجد شيئا . أمسك البـــائع العصا وجرى خلفه .

كان جسده خفيفا صغيرا يطير في الهواء كأجســـاد العصافير ، وكان من الممكن أن يسبق البـــائع (لو كان عصفورا) ، لكنه أحس فجأة (وكما يحدث في الاحلام) ان جسده أصبح ثقيلا كأنه تحجر عـــلى شكل تمثال ، تسمرت قدمـــاه في الارض ، وثبتت ذراعاه بالحديـــد والاسمنت ، والفخذان أصبحتا من الرخام ، وكل فخذ شدّ الى ناحية ، ودقّ في كل قدم مسمار كالمصلوب، وارتفعت

العصا الرفيعة من الخيزران في الجو ، طويلة ورفيعة ومعوجة كالقوس ، ثم هوت على شيء طري ساخن كاللحم الحي •

* *

حين فتح حميدو عينيه، كان ضوء النهار يملأ الغرفة• وأيقن ان ما رآه لم يكن الا حلما ، فقفز من فوق الحصيرة وجرى الى الشارع • كان أصدقاؤه من أطفال الجيران يلعبون كعادتهم في الحارة الممتدة أمام البيوت الطينية ، يمسك كل منهم يد الآخر ويصنعون دائرة تلف وتدور ، وصوت غنائهم الحاد الرفيع يدور مع حركة أجسادهم في أغنية واحدة ، لها مقطع واحد ، يتكرر في دورة متصلة لا تنقطع :

حميدة ولدت ولد
سمته عبد الصمد
سابته على الانايا
خطفت راسه الحدايا
حد يا حد يا بوز القرد

ولانهم يدورون ويغنون بغير انقطاع ، فلا يمكن للاذن أن تعرف بداية الاغنية من نهايتها ، ولا يمكن للعين

أن تعرف بداية حركتهم من نهايتها ، لانهـم أطفال ، ولان الاطفال حين يلعبون يمسكون بأيديهم بعضهم بالبعض على شكل دائرة مغلقة •

❋ ❋

ولكن لا بد لي أن أنهي القصة ، فكل شيء له نهاية، لكن نقطة النهاية في هذه القصة لا أستطيـع تحديدها • فالنهاية لا تنتهي بنقطة محددة ، لان النهاية في حقيقـة الامر غير موجودة ، أو ان النهاية والبداية يتصـلان في خيط واحد دائري من الصعب تحديد أوله من آخره •

ومن هنا الصعوبة في انهـاء شيء ، وبالاخص اذا كان قصة حقيقية ، أي قصة صادقة كل الصدق ، دقيقـة غاية الدقة • والدقة تقتضي من الكاتب أو الكاتبة أن يراعى كل حرف ، وألا يهمل أي نقطة • ان نقطة واحدة قد تقلب كيان معنى من المعاني ، وبالذات في اللغة العربية • الذكر قد يصبح أنثى بسبب نقطة أو شرطة ، والبعل يصبح بغلا ، والوعد وغدا وهكذا •

ومن هنا أهمية النقطة الدقيقة المحددة • أي النقطة الهندسية • وبمعنى آخر ، لا بد من دقة علمية في العمل الفني الجيد • لكن العلم يفسد الفن : وهذا الافساد هـو

بالضبط ما أردته في هذه القصة لتصبح جيدة ، أو لتصبح حقيقية وصادقة صدق الحياة الحية. لان الحياة قد تكون ميتة في بعض الاحيان ، كالانسان الذي يمشي على الارض دون أن يعرق ، أو دون أن يبول ، أو دون أن ينبعث من جسده شيء فاسد . لا يمكن للانسان الحي أن يحبس فساده في داخله ، والا مات ، وأصبح وجهه أبيض ناصع البياض ، وجوفه عفنا عفونة الموت .

خيل الي (والخيال في تلك اللحظة كان حقيقة) ، ان طفلا من الاطفال المنشدين المتماسكين بالايدي على شكل دائرة تدور ، خرج فجأة من الدائرة . رأيت جسمه الصغير ينفصل عن الخط الدائري المنتظم في دورانه كنقطة لامعة محددة . كنجم فقد توازنه الابدي فانفصل عن الكون اللانهائي ، واندفع بحركة عشوائية سريعة متوهجا بشعلة كالشهب قبل أن يحترق .

وباستطلاع غريزي تابعت عيني حركته . وحين توقف كان قد أصبح بالقرب مني . ورأيت وجهه . لم يكن طفلا ذكرا . كان أنثى . لم أعرف عن يقين انها أنثى ، فوجوه الاطفال كوجوه العجائز ليس لها جنس .

الوجه (للغرابة الشديدة) لم يكـــن غريبا عليّ •
كان مألوفا بدرجة أثارت دهشتي الى حد عدم التصديق •
فليس من المعقول أن يخرج الانسان من بيته في الصبـــاح
ذاهبا الى عمله ، فاذا به يصطـــدم بشخص آخر ، ما أن
يرفع وجهه اليه حتى يرى وجهه هو وليس أي وجه آخر •

أعترف ان جسدي ارتج • نوع من الذعر شديد ،
يشلّ قدرة الانسان على التفكير • ومع ذلك فكرت : لماذا
يذعر الانسان حينما يرى وجهـــه وجها لوجه ؟ ربما هي
الغرابة الشديدة ، أو ربما هي الالفة الشديدة • حينئـــذ
يختلط على الانسان كل شيء ، وتصبح الاشياء المتناقضة
متشابهة الى حد التماثل ، فالاسود يصبح أبيض ، والابيض
أسود • ومعنى ذلك أن يواجه الانسان بعينيه المفتوحتين
حقيقة انه أعمى •

ــ تمت ــ

مؤلفات د. نوال السعداوي

امرأتان في امرأة
موت الرجل الوحيد على الأرض
امرأة عند نقطة الصفر
الأغنية الدائرية
موت معالي الوزير سابقاً
الخيط وعين الحياة
الغائب
كانت هي الأضعف
مذكّرات طبيبة
تعلّمت الحبّ
حنان قليل

دار الآداب
هاتف ٨٠٣٧٧٨ - ٨٦١٦٣٣
ص.ب ٤١٢٣ - ١١ بيروت